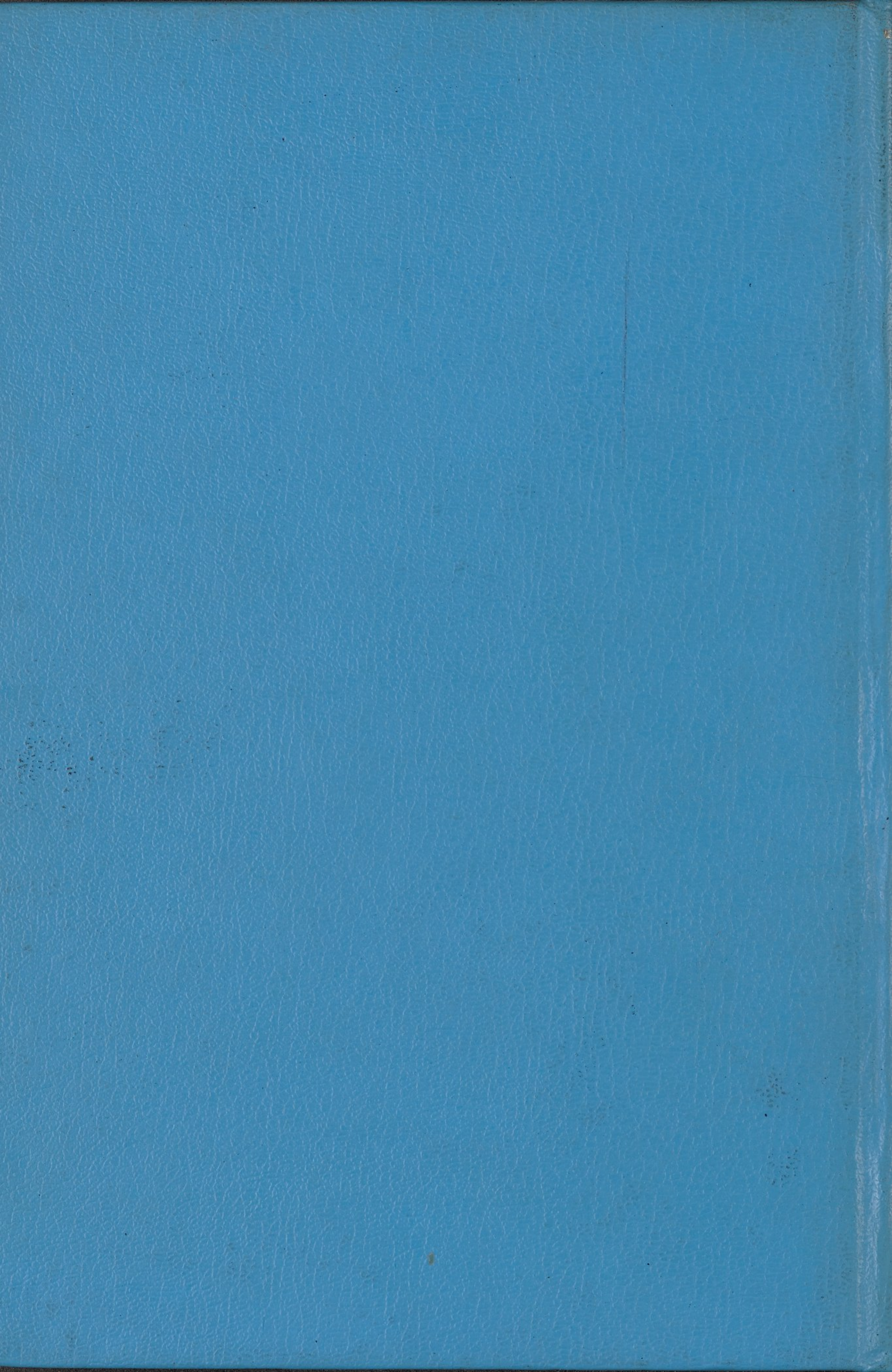
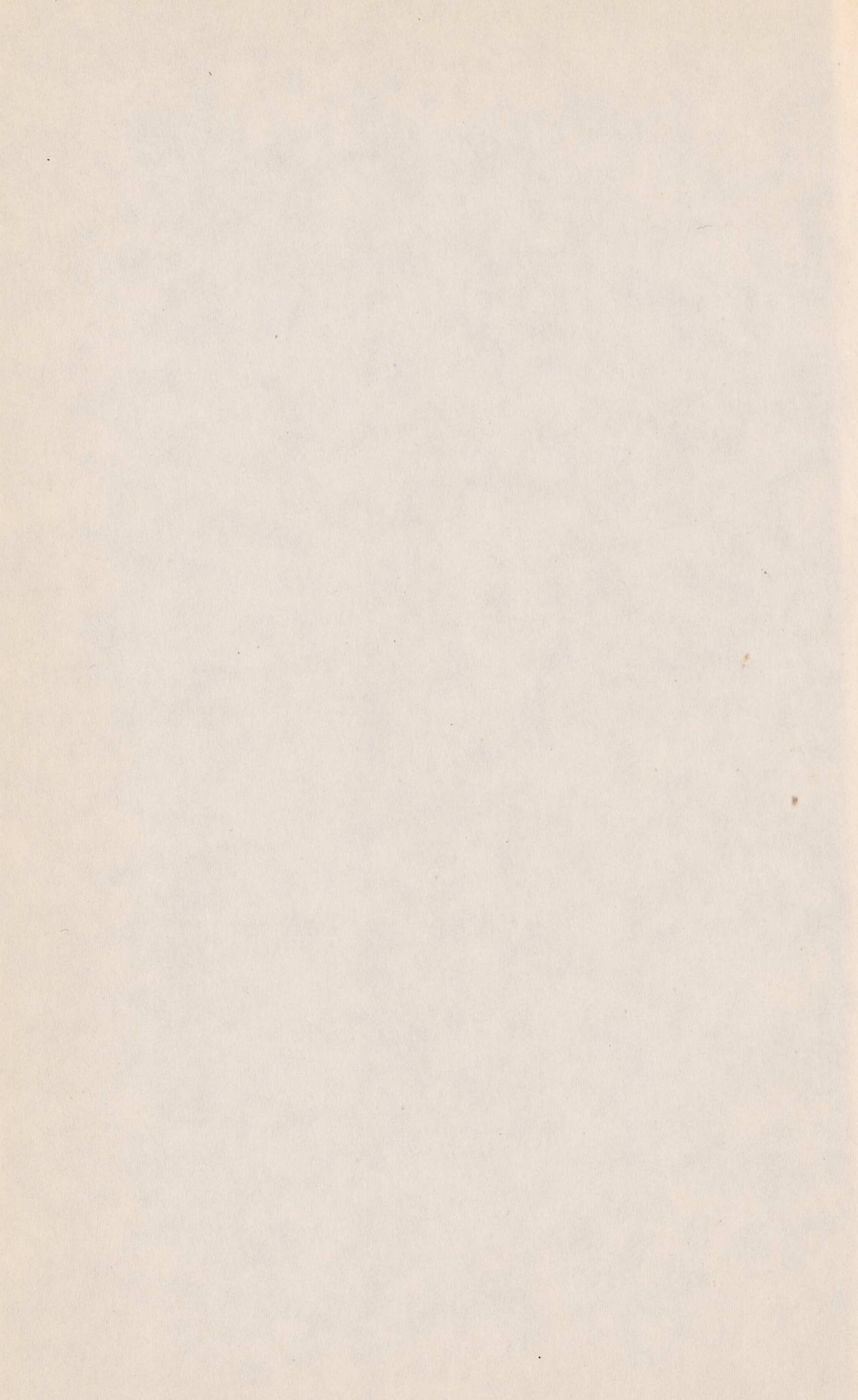








ما عز سلطان الا بالسيف ، ولا امتهنت أمة الا من الخوف . فرب حياة تكون في طلب الموت ، ورب موت يكون في طلب الحياة . وخير للامة ان تموت في حيات الوطن ، من ان يموت الوطن في حياتها

العربي



اسبابها مقدماتها تطوراتها ونتائجها

بقلم

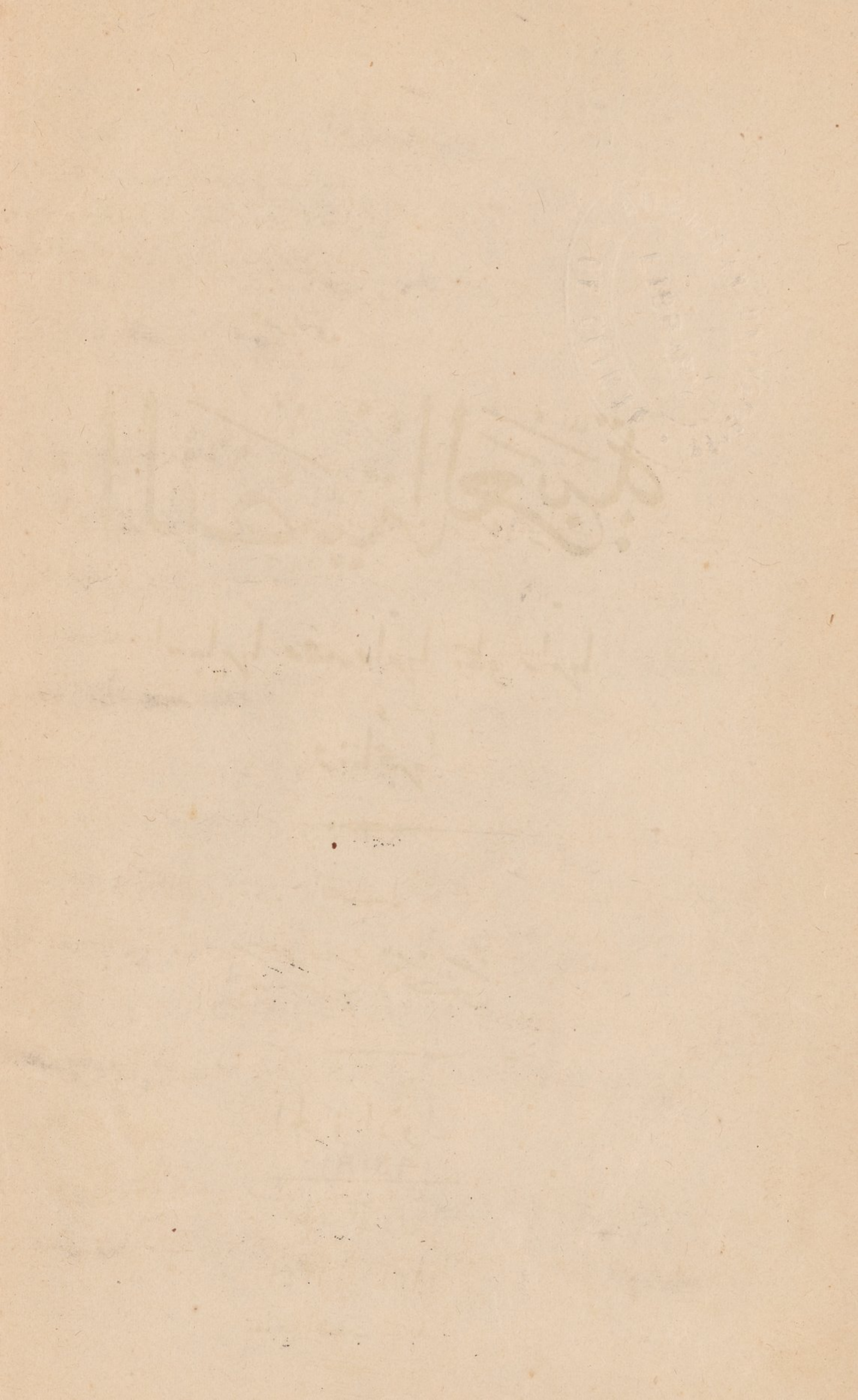
احمد عزت الأعظمي

الجزؤ الاول

(الطبعة الأولى)

١٣٤٩ — ١٩٣١

مطبعة الشعب — بغداد



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

فمن نكث فأنما ينكث على نفسه، ومن أوفي بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما.

لم يمض زمن طويل حتى يسدل النسيان ستاره على تلك الوعود الخلابة التي كانت تكيلها ساسة الغرب جزافاً أبان الحرب الكونية. بل كل منا يذكر جيداً أن الحلفاء كانوا طيلة سنوات الحرب يعلنون ويؤكدون انهم لا يحاربون ألا للدفاع عن حرية الشعوب المستضعفة، والانتصاف للمظلوم. ثم جاء الرئيس «ولسن» يقرر مبدأ من أقدس المبادئ، الا وهو تخويل كل شعب حق تقرير مصيره، واختيار نوع الحكم الذي يريده!..

ولكن الطمع أغرى ساسة الحلفاء، فحنثوا في دعواهم بعدان ثملوا بخمرة النصر، وضربوا بوعودهم التي كانوا يكيلونها في أيام المحنة والضيق عرض الحائط. ولم يكتفوا بذلك. بل ابتكروا اسماء جديدة — كالوصاية والانتداب — يغطون بها استعبادهم للشعوب التي هوى بها نكد الطالع فى الدرك الأسفل من البؤس والشقاء.

ومن نكاة القدر: ان الذين عاهدوا الامة بأوثق العهود، واقسموا لها أغلظ الايمان على الاخلاص. اصبحوا ولاهم لهم الا ان

يشددوا التنكير على قضيتها ليوردوها حتفها ، او تهوى بها الريح في مكان سحيق :

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد ان هما شفياني
فقالا شفاك الله والله مالنا بما حملت منك الظلوع يدان

تفيأ معظم الامم المستعبدة بعد ان وضعت الحرب اوزارها ظلال الحكم الذاتي، واستوى كل منها على كرسي السيادة والسلطان الا الأمة العربيـــة . وكان حقاً عليها بعد ان جاهدت في سبيل استقلالها ، أن تسترد حقها المهضوم ، وتتبوأ مكانتها اللائقة بين الشعوب الراقية. ولكن عشاق المظاهر المزيفة والحيثيات الكاذبة، فتوا في ساعدها فدفعوها الى هاوية الاستعباد والاستعمار .

وقد يحق للامة العربية ان تصب جام نقمتها على رؤوس اولئك الذين اتخذوا الوطن العربي ومنافعه وسيلة الى ارضاء اطماعهم، وتحقيق منافعهم. أولئك الذين اولدتهم الحوادث السود ، فاندسوا بين ابنائها المخلصين ، وطفقوا يظهرون حباً جماً ، وعطفاً سامياً يصطفق فيه جلال ذلك الحب على قضيتها ، بينماهم يتربصون بها الدوائر ، ويضمرون لها شراً مستطيراً يجهرون به كلما اومض برق الفرص السانحة من جانب الذين قلبوا لهذه الامة النبيلة ظهر المجن وهم لا يزالون يتذرعون بالوطنية ، ليستدرجوا الامة على مقتضى ميول اسيادهم في خنق الاستقلال ووئد الوطنية :

لهم كل عام بدعة يحدثونها اذلوا بها اقوامهم ثم اولوا

فاليك يساق الحديث يامن يغار على مصالح امته ويود النهوض بها من حضيض العبودية الى المستوى الذى تعشقه كل أمة تحب ان تعتز بوطنها وتفخر بقوميتها . نعم أليك يساق الحديث ، لا الى القدر الأهوج الهازئ المتجهم .

لا تثريب على الحلفاء اذا كانوا هم الجناة على استقلال العرب لأن حب التبسط في البلاد العربية واستعمارها ، تغلغل فى قلوبهم ، وتسلط على مشاعرهم . ولكن ما عذر اولئك الذين تملقوا امتهم تحت ستار الوطنية ، حتى اذا انخدعت لهم ووثقت بهم : جدوا في اذلالها واستعبادها وحاولوا التضحية بها في سبيل ادنأ الاغراض وأخس الغايات :

اذا الحسب الرفيع تواكلته   بناة السوء أوشك ان يضيعا

وقد حان الزمن الذى نميط فيه اللثام عن كثير من الأمور والحوادث والوقائع التى ظل اثرها مكتوماً الى الآن ليظهر للملأ الصالح ما مثله من الأدوار السافلة اولئك الذين لا يهمهم من هذه الحياة غير حب الذات والشهرة ، ولو تخطوا اليهما على جثث القتلى وانقاض الوطن .

ويجمل بنا قبل الدخول في الموضوع ، ان نلقي نظرة بسيطة الى الوراء لنستعرض ما كان لهذه الأمة النبيلة من السودد والعظمة أبان عزتها القعساء ومجدها المؤثل ، لتكون تبصرة وذكرى لهذا الخلف الذي اتبع الشهوات ، وظل عن سواء السبيل .

الفصل الاول

فذلكة موجزة في تاريخ العرب المزدهر

لم يشهد التاريخ مملكة مترامية الاطراف ، ذات بأس وصولة وذات مدنية باهرة وحضارة زاهرة ، كالمملكة العربية . فقد ترامت اطرافها ذات اليمين وذات الشمال من الصين الى مصر ، ومن ارمينيا وآذربيجان والقفقاس الى فرنسا . هذا عدا عن اسبانيا وصقلية وجنوبي ايتاليا وجزر البحر المتوسط .

ان الذي يقلب صفحات تاريخ هذه الدولة المعظمة ، ويقرأها بدقة وامعان ، لابد وان تتملكه الحيرة والدهشة . فيتسائل كيف تقوضت اعمدة هذه الدولة القوية الشكيمة ، واصبحت اثراً بعد عين؟ وما هى الاسباب التي اوهنت قواها فتداعى بنيانها المشمخر ؟ وما هى العلل التى اصابت بها فمزقتها كل ممزق ؟ هذه هي الاسئلة التى تجول فى ذهن كل قارئ يقرأ تاريخ العرب المزدهر .

ان الامة العربية منذ اول حجر وضعته فى زاويتها ، اكتسبت عداوة جميع الامم التى اكتسحت اراضيها وكانت كلما اعتلى شأنها كلما غلي مراجل الحقد في صدور اعدائها التى لم تفتأ ان تتفنن في ضروب الدسائس والفتن . وكان على العرب ان يأخذوا للامر عدته ، ويكونوا كالبنيان المرصوص ، لا ان يتشعب

صدعهم فيحدثوا ثغرة في صفوفهم يدخل منها العدو فيضرب بعضهم ببعض. ان الاجنبي لمعذور فيما اذا هو لم يقبل بسيطرة العربي عليه ، ولكن ما عذر العربي الذي طفق يحطم بمعوله بناء مجده الشامخ المشيد بدماء اجداده الزكية؟

سيد العرب الاكبر محمد بن عبد الله
صلى الله عليه وسلم

ان كان هنالك عز للعرب فاكبر عزهم بمحمد بن عبد الله. وان كان هنالك شرف للعرب فاعظم شرفهم بمحمد بن عبد الله. لقد اشاد محمد للعرب مجداً تتقاصر عنه امجاد الامم. واقام لهم فخراً يتضائل لديه فخار الشعوب. اعطاهم صولجان الحكم وكرسي السيادة حيناً من الدهر ، فانحنت لهم الهامات اعجاباً واكبارا ، وجعلهم مصداقا لقول شاعرهم :

اذا نحن سرنا سارت الناس خلفنا وان نحن اومأنا الى الناس وقفوا

ولو اتبعت الامة تعاليمه ، لما كان في الدنيا سلطان يدك صياصي سلطانها ، ولبقيت على توالي الجديدين عزيزة الجانب ، نافذة الكلمة ، لها الحول والطول بين اقوام البسيطة على الرغم من كوارث الدهر وخطوبه.

سياسته صلى الله عليه وسلم

لقد واصل صلى الله عليه وسلم السير في سهول العز والمجد

بخطوات منتظمة جبارة . اذ قد اسس سياسته الاولى على دعائم السلم ، وقال لقومه :

ما اعلم انساناً في العرب جاء قومه بافضل مما جئتكم به بخير الدنيا والآخرة . وقد امرني الله تعالى ان ادعوكم اليه . ولما رأى ان نصحه لم يثمر ، ولم تأت سياسته السلمية بفائدة ، التجاء الى المدينة المنورة فالتف حوله نصراؤه من الاوس والخزرج . فثبت قواعد امره ، واحكم عقدة سيره . ثم قال لاصحابه الذين اتبعوه واعتنقوا دينه القويم :

ان كل وسائل الاقناع قد استعملتها ، وقد فات وقت الصبر . فانا مأمور بان الاشي الاصنام ، وانشر شريعة الله ولو بالسيف .

ثم شرع باتخاذ سياسته مسلحة بالقوة . فارسل عبيدة في مطاردة قريش ، وارسل عمه ضد ابي سفيان . وباشر بنفسه عدة غزوات ، كغزوة الابواء ، ثم غزوة بواط ، ثم العشيرة ، ثم بدر الاولى ، ثم غزوة بدر العظمى ، وغزوة الكدر ، وغزوة السويق وغزوة بني قينقاع ، وغزوة حمراء الاسد ، وغزوة احد ، وغزوة بئر معونة ، وغزوة بن النضير ، وغزوة ذات الرقاع ، وغزوة بدر الموعد ، وغزوة دومة الجندل ، وغزوة الخندق ، وغزوة بني قريظة ، وغزوة بني المصطلق ، وغزوة خيبر ، وغزوة جيش الامراء ، وغزوة حنين ، واخيراً غزوة تبوك في التاسعة

من الهجرة . وكانت مكة المكرمة قد دخلت فى حكمه واستتب امره في الحجاز .

ثم شرع يكاتب ملوك عصره ويدعوهم الى الدخول فى حضيرته والانضواء تحت رايته . فكتب الى هرقل عظيم الروم ، وكسرى عاهل الفرس ، والنجاشى ملك الحبشة ، والمقوقس صاحب مصر . وبعث سليط بن عمر الى هوذة بن على صاحب اليمامة والعلاء بن الحضرمى الى المنذر بن ساوي صاحب البحرين ، وعمرو بن العاص الى جيفر صاحب عمان ، والشجاع بن وهب الى الحارث بن شمر الغساني صاحب دمشق .

اما عاهل الفرس فقد استغرب من هذه الدعوة ، ومزق الكتاب وطرد الرسول قائلا :

كيف يجتريء عبد ان يخاطب سيده بهذا الخطاب . واما الملوك الآخرون فمنهم من اجاب على كتابه بالرفق ، ومنهم من اعرض عنه .

اما العرب فقد انحاز اليه اكثرهم ، والذى بقي خارجا عن حوزة نفوذه فقد ساقته القوة مكرها الى الانحياز . وكان فى نيته صلى الله عليه وسلم ان يجهز حملة على الشام فادركته الوفاة .

انقسام الامة بعد وفاته

صلى الله عليه وسلم

لبى الرسول صلى الله عليه وسلم داعي الله ، وهو لم يكتب وصية

يثبت فيها اسم من سيخلفه بعده ، بل ترك امر الخلافة لرأي الأمة تحكم فيها ضمائرها وعقولها دون أن ينص على شخص بعينه · فتنازع زعماء الأمة في امر الخلافة ، وادى ذلك التنازع الى ظهور ثلاثة احزاب فيها. الحزب الأنصاري ، والحزب القرشى ، والحزب الهاشمي · وكان كل من هذه الاحزاب يريد الخلافة لنفسه ، وكل منها يدلى بحججه وبراهينه على أنه هو صاحب الحق فيها · ولو لم يتدارك عقلاء القوم هذه الفتنة في وقتها لاندلعت السن نيرانها ولكان وقودها جثث وهام .

الحزب الانصارى

أما الحزب الأنصاري ؛ فقد أراد ان تكون الخلافة في الأنصار شورية ينتخبون الأفضل فيهم . وقد مال اليه الأنصار فارادوا مبايعة سعد بن عبادة الأنصارى · وكان برهانهم انهم نصروا صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم بالسيوف المرهفة والأسنة المذلقة · وقد احتشد الجمهور فى سقيفة بني ساعدة لينظر فى فاتحة الأمر . فوقف الحباب بن المنذر بن الجموح الانصاري وصرخ بالقرشيين قائلا :

منا أمير ومنكم أمير · فان أبوا فاجلوهم يامعشر الأنصار من البلاد · فبأسيافكم دان الناس لهذا الدين وان شئتم اعدناها جذعة انا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب

الحزب القرشي

أما الحزب القرشى ، فاراد ان تكون الخلافة في قريش للافضل من بينهم شورية مقيدة . واليه مال المهاجرون . و كانت حجتهم فى ذلك ، حديث النبي صلى الله عليه وسلم «الأئمة من قريش» رواه لهم أبو بكر الصديق في اجتماع السقيفة . ثم قال يخاطب الانصار :

نحن أولياء النبى وعشيرته ، وأحق الناس بأمره . وانتم لكم حق السابقة والنصرة . فنحن الامرآء وانتم الوزرآء . لاتدين العرب ألا لهـذا الحي من قريش ، فلا تنفسوا على أخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله . ووافقه على ذلك عمر بن الخطاب بقوله :

ان الرسول اوصانا بكم كما تعلمون ، ولو كنتم الأمرآء لأوصاكم بنا .

الحزب الهاشمى

أما الحزب الهاشمى ؛ فأراد ان تكون الخلافة خاصة فى بني هاشم من قريش للاقرب من بينهم الى الرسول . وقد طلبها علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ورضى الله عنه بنآء على حق القربى ، وعلى عهد الرسول اليه ، وبرهانه على ذلك ما ورد في خبر :

جمع النبي أعيان بني قريش ووعد بالخلافة لمن وازره في دعوته، فلبى علي بن ابي طالب دعوته من بينهم وحده.

فوز الحزب القرشى

وبعد ان احتدم الجدال في السقيفة، وطال الاخذ والرد كانت صفقة الحزب القرشى هي الرابحة. اذ فصل الامر بشير بن سعد الخزرجي قائلا:

ألا أن محمداً من قريش، وقومه أحق وأولى، ونحن وأن كنا اولى فضل فى الجهاد، وسابقة في الدين، فما اردنا بذلك ألا رضى الله وطاعة نبيه. فلانبتغي من الدنيا عوضاً، ولا نستطيل به على الناس.

فاجمع أمرهم على خلافة قرشية، واقاموا ابا بكر الصديق خليفة. وعلى أثر ذلك انحاز الحزب الأنصاري الى الحزب القرشى واندمج فيـــه. وقد أحسن بذلك عملا اذ حافظ على الكيان القومى من ان تحطمه معاول التحزب والأنقسام. لأن الدولة العربية كانت فى بدء تكونها، وهي فى حاجة شديدة الى اتحاد زعمائها العاملين

أما الحزب الهاشمى؛ فقد تمسك بمبدأه تمسكا شديداً لم يحد عنه ولا قيد انملة، بل بقي يتحين الفرص ليسترد حقه المضاع.

الخلفاء الرشدون

خلافة ابى بكر الصديق

رضي الله عنه

بعد أن خرج الحزب القرشى من المعركة ظافراً، اتفق القوم

على مبايعة أبي بكر الصديق بالخلافة فقام وقال :

اني وليت عليكم ولست بأفضلكم ، فان أحسنت فاعينوني وان صدفت فقوموني الصدق أمانة، والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه . والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه . اطيعوني ما أطعت الله ورسوله . فان عصيت الله فلا طاعة لى عليكم .

ولقد قام الصديق بأعباء الحكم أحسن قيام . ولولا حزمه وعزمه ، وايمانه القوي بمبدأه لانحلت عرى الوحدة العربية ؛ ورثت قواها . اذ فقد ارتد أكثر العرب عن الأسلام ، وظهر رجال ادعوا النبوة مثل مسيلمة بن حبيب الحنفي والاسود العنسى المدلجي وطليحة بن خويلد الاسدي . وكادت الفتنة تعم الجزيرة العربية كلها . ولكن ابا بكر تداركها بما فطر عليه من مضاء العزيمة فقاتلهم بلا شفقة ولا رحمة ، وردهم الى حضيرة الوحدة العربية .

ولم يمض أقل من سنة حتى خضعت جزيرة العرب كلها ، وعادت كما كانت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم سير جيش أسامة الذى جهزه النبي قبل وفاته الى بلاد قضاعة في اطراف الشام ، وبعث خالد بن الوليد على رأس جيش الى العراق ، ثم لبي داعي الله . وكانت مدة خلافته نحواً من سنتين ونصف سنة .

خلافة عمر بن الخطاب

رضى الله عنه

وبعد وفاته بويع بالخلافة عمر بن الخطاب . وفي عهده تم فتح سوريه وفلسطين والعراق ومصر . وكان عمر بن الخطاب مفرطاً في حبه لقوميته ، ولذلك اجلى العناصر الغريبة من الجزيرة حفظاً للكيان القومى وللوحدة العربية . وهو القائل : استوصوا بالعرب خيراً فانهم مادة الاسلام .

وهو أول من وضع التاريخ الهجري ، ودون الدواوين ، ومصر الامصار . وبنيت في مدة خلافته مدينة الكوفة والبصرة فى العراق ، والفسطاط فى مصر . وقد مات مقتولا بطعنة ابى لؤلؤة فيروز الفارسى ، وذلك انتقاماً لقومه الفرس الذين قضى العرب على دولتهم وملكهم . وكانت مدة خلافته ستة اشهر وعشر سنوات .

خلافة عثمان بن عفان

رضي الله عنه

بويع بالخلافة بعد عمر بن الخطاب . وفى عهده فتحت برقه وطرابلس الغرب والنوبة وجزيرة قبرس و كرمان وسجستان وما اليهما وأنشىء في زمنه أول أسطول عربى ، أنشأه معاوية بن ابى سفيان ، وبذلك اضاف العرب الى قوتهم البرية قوة بحرية . وقد

ولى الممالك المفتوحة من يثق به من اهله واخصائه . فنقم منه بعض العرب وثاروا عليه وقتلوه . وقد دامت خلافته اثنتي عشرة سنة .

خلافة علي بن ابي طالب

كرم الله وجهه ورضى عنه

وبعد قتل عثمان، تنازع اصحاب الحل والعقد في من يتولى أمر الخلافة فبايع الاكثرون علي بن ابي طالب . وهو رجل يمثل البطولة في أسمى معانيها ، ولا يحب أن يخاتل ويخادع ويظهر خلاف ما يضمره قلبه . وهو القائل لابن عباس وقد دخل عليه بذي قار ايام خلافته وهو يخصف نعله :

يا ابن عباس ما قيمة هذه النعل ؟ فقال يا سيدي لا قيمة لها . فقال :

والله لهي عندي خير من أمارتكم هذه الا ان اقيم عدلا وادفع باطلا .

وقد نشأ بينه وبين معاوية بن ابي سفيان خلاف ادى الى معارك دموية . وفي الاخير شاءت الأقدار ان يكون النصر حليف معاوية ، ويقتل علي بن ابى طالب بيد ابن ملجم . فانفرد معاوية بالملك واسس الدولة الاموية . وقد انقضى عهده الذي دام خمس سنوات تقريباً بالفتن الداخلية .

الدولة الاموية

بعد أن استتب الأمر لمعاوية بن ابى سفيان ، استولى على الملك

فثبت قواعده ووطائده ، واسس دولة بني أمية . وفي عهده فتحت بلاد تركستان وبلاد افغانستان وشمال الهند والجزائر ومراكش وجزيرة رودس وجزيرة كريد . وفي زمن الوليد بن عبد الملك وكان اشهر بني أمية ؛ فتح الاندلس وسمرقند واواسط افريقيا ؛ وفي عهد هشام بن عبد الملك ؛ اتسعت دائرة ملك الدولة الأموية الى ما لم تبلغه قبلهم دولة من دول الأرض . فما بين النهرين المعروف بالجزيرة وايران وقسم من الافغان والتركستان والتيبت والقوقاس وارمينيا وشبه جزيرة العرب وسورية ومصر والمغرب والاندلس .

وصفوة القول ؛ فقد كان سلطان العرب يمتد من الصين والهند الى المحيط الاتلانتيكى شرقاً وغرباً ، ومن سهول سيبريا الى السودان شمالا وجنوباً . وهي أكبر مساحة وصلت اليهـا المملكة العربية .

ومن ذلك الحين كثرت الفتن الداخلية فى هذه الدولة وقويت الاحزاب المشايعة للهاشميين حتى غلبتها على أمرها . فهوت نجوم سعدها ، وانمحى اسمها من لوحة الوجود .

الدولة العباسية

لم تفتر عزائم رجال الحزب الهاشمي عن السعي وراء تحقيق مطلبهم الاسمي ، على الرغم مما كانوا يلاقونه من ضروب الاضطهاد والارهاق ، فقد أخذوا يسعون سراً في تقويض دعائم الدولة

الاموية، واعادة الخلافة اليهم: وعندما حل القضاء بالدولة الاموية وانهدت قواعد بنيانها، قامت على انقاضها الدولة العباسية فانقسم حينذاك الحزب الهاشمي الى حزبين عظيمين، الحزب العباسى والحزب العلوي. وبدأ التطاحن بين العباسيين والعلويين، وشرع كل حزب يناوىء الآخر ويعمل على هدمه وتحطيمه.

وهذا هو السبب الذي ادى الى خراب تلك المملكة العربية الزاهرة، وانقسامها في الأخير الى دويلات صغيرة لم تستطع الذب عن حياضها. لأن الامم التى قضى العرب على مجدها فكانت لا تريد لهم خيراً، رأت ان هذه التحزبات مما توصلها الى الانتقام من العرب الذين اجتاحوا ممالكها وحطموا عروشها. فطفق رجالها الذين ينتهزون الفرصة ليختلسوها، وينتظرون الزلة ليختطفوها يدخلون في صفوف العرب المنقسمين على انفسهم، ويضربون بعضهم ببعض. الى ان آل الامر بتلك الامة المعظمة التي كانت لا تقاومها قوة تحت السماء، ان تأخذ بالانحطاط دركة فدركة حتى اصبحت كأن لم تكن بالأمس:

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامر

والخلاصة: ان الخلافة فى زمن الراضى بالله العباسى، كانت قد أصبحت امامة دينية لا غير.

فكانت البصرة في يد ابن رائق، وخوزستان في يد البريدي وفارس فى يد عماد الدولة بن بويه، وكرمان في يد ابى على محمد

بن الياس ، والري واصفهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه، والموصل وديار بكر في يد بني حمدان ، ومصر والشام فى يد الاخشيد محمد بن طغج ، والمغرب وافريقيا فى يد القائم العلوى ابن المهدي ، والاندلس فى يد عبدالرحمن الناصر ، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن احمد بن سامان الساماني ، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم، والبحرين واليمامة فى يد ابي طاهر القرمطى ونحو ذلك .

وهكذا اصبحت الولاية مملكة أو دولة ، ومنح واليهـا لقب صاحب العظمة او صاحب الجلالة . كانما هذه الالقاب هي المزايا التي تتمتع بها الامم السعيدة فى حياتها الحرة ! . . .

الفصل الثانى

الدولة العثمانيـــة

بعد ان انتثر عقد الدولة العربية ، واستقلت الاقطار عن بعضها البعض ، واصبح كل من يملك عدة من القرى والدساكر يسمى الملك والسلطان، ظهرت الى الوجود الدولة العثمانية في وسط الاناضول، تحت رعاية الدولة السلجوقية التركية التي كانت عاصمتها « قونية » ولما توفي السلطان علاء الدين السلجوقي ، استقل الولاة السلجوقيون كل منهم في ولايته . واعلن الوالي عثمان الأول ايضاً

– وهو جد سلاطين آل عثمان – استقلاله في ولايته. واتخذ عاصمته «يكي شهر» وذلك سنة ١٣٠٠م. وهو تاريخ تأسيس الدولة العثمانية

وبعد وفاة السلطان عثمان الأول؛ شرعت خلفاؤه تحارب الامرآء المجاورين لها، فتقهرهم واحداً بعد الآخر، ولم تمض مدة طويلة حتى استولت على اكثر الامارات السلجوقية في الاناظول. وما فتئت هذه الدولة تزداد نمواً وبسطة في الارض، الى ان اصبحت بعد قليل من الزمن، قوية الشكيمة، مهيبة الجانب، يحسب لها العدو الحساب الأكبر.

اكتساح الدولة العثمانية لبلاد العرب

ولما جلس على اريكة الملك السلطان سليم الأول؛ رأى ان دعائم ملكه لا تتوطد، الا اذا انتزع الحرمين الشريفين من ملك مصر، وادخلهما تحت سيطرته. فزحف بجيش عرمرم على سورية فاجتاحها، ثم واصل زحفه على مصر فالحقها بأختها. وكانت الحجاز تابعة لمصر فاستولى عليها. وكان حينئذ في مصر الخليفة المتوكل على الله العباسى، فبايع السلطان سليما بالخلافة وذهب معه الى الاستانة فمات هناك، واصبح السلطان سليم هو خليفة المسلمين لا ينازعه منازع؛ وبذلك قضى لبانته وفاز بما كان يطمح اليه.

ثم خلفه ابنه سليمان القانوني، وكانت الدولة العثمانية فى زمنه قد وصلت الى اوج عظمتها. فلم يسعه ان يرى العراق خارجاً

عن نفوذه، لم تخفق عليه رايته وبنوده، فسير جيشاً فتح به العراق سنة ١٣٣٥ «م».

ثم ارسل عمارته البحرية الى بلاد المغرب، فطرد الاسبان منها واستولى على تونس والجزائر وطرابلس الغرب. فاصبح تحت سيادة الدولة العثمانية جميع الممالك العربية، وفيها بلاد الشام والعراق والحجاز واليمن في آسيا، ومصر وبني غازي وطرابلس الغرب وتونس والجزائر في افريقية.

وأخذ العرب يهبطون من مستواهم الى دركات الذل والعبودية. وبقوا عصوراً طوالا يتجرعون كؤوس الضيم والقهر، وهم لا يحركون ساكنا، ولا يستفزهم ما في صحف التاريخ من المجد والعظمة الباهرة.

الفصل الثالث

اليقظة القومية

لقد انكمش ظل العرب في جزيرتهم وفي البلاد المجاورة لها، بعد ان استظل به زمناً طويلا ما يقارب ثلثي هذه البسيطة من الاقطار.

وقد شاءت الاقدار ان تكون تلك الاقطار التي ذوت اغصان عزها، مسرحاً لتمثيل ادوار الامم التي مكنتها القوة

القاهرة من خضد شوكة العرب ، فاستولت عليها قطراً بعد قطر واضحى العرب مستعبدين بعدان كانوا هم السادة والقادة. واناخت عليهم العصور المظلمة بكلكلها فبقوا تحت نيرها الاسود ، وهم لا يسمع لهم على كثرتهم وسعة بلادهم صوت ولا حركة سيما وان معظم ديارهم دخل تحت سيطرة الترك الذين كانوا يعدونهم اخوانهم في الدين. وهذا من جملة الاسباب التي ساعدت على اضعاف الفكرة القومية.

وعندما انبلج صبح التاريخ الحديث ، وكانت نيران الثورات القومية يتطاير شررها في الاوساط الاوربية ، استيقظ العرب من رقدتهم ، ونهض اولوا القوة منهم يصرخون في وجه الغاصب المستبد صرخات الهول والرعب ، فيردد صداها اجواء الاقطار العربية.

وأول صوت مزق حجب الجمود المستحوذ على العرب وارجف بالمستبدين بهم ، كان صوت الامير محمد السعود.

الامير محمد السعود

عندما كان القرن الثامن عشر على وشك الأنضمام الى القرون التي خلت من قبله ، كانت الديار النجدية فيها أمارات صغيرة متفرقة. فكانت « بريدة » يتولاها آل مهنا ، و « عنيزة » يحكمها آل سليم و « الأحساء » يحكمها بنو خالد ، و « الرياض »

يملكها آل دواس ، « والدرعية » حكامها آل سعود . وهكذا كل امارة فيها امير من اهلها . وكان كل أمير مستقلا فى شؤونه عن غيره ، ولا يريد بوجه من الوجوه ان يتحد مع غيره من الامراء لتقوية ، شؤون قوميته خوفاً من ضياع عرشه فى المستقبل . «١»

وكان اقوى اماراتها امارة « الدرعية » التي يحكمها الامير محمد السعود . وكان رجلا كبيراً فى حزمه وعزمه ، طموحاً الى السيادة والمجد . فنهض يريد القضاء على السلطة العثمانية ، واحياء ما كان للعرب من عز وسلطان . وهو أول أمير عربي فكر في هذه الغاية النبيلة بيد أنه رأى ان هذه الفكرة لا تتم الا بالقضاء على الامارات

«١» كانت ديار نجد اشبه ببلاد ايطاليا فى منتصف القرن التاسع عشر ، عندما كانت منقسمة الى امارات متعددة . وكان في كل من ساردنيا ، لومبارديا ، فنسيا ، بارم ، طوسقان ، نابولى ، امير او ملك . وكان اقليم بيمون — الذى عاصمته اردنيا — اقوى تلك الامارات ، وذلك بهمة ملكه فكتور عمانوئيل الذى كان يشبه في مطامعه الامير محمد السعود . وكان الملك عمانوئيل يفكر في انشاء وحدة قومية طليانية ، واحياء عظمة ايطاليا من جديد . وما كانت هذه الفكرة بالامر السهل ، بل كانت تحتاج الى سيوف مرهفة ، وطرق مواصلات منظمة ، ومعارف يكتسح سيلها ادران الجهل . كل هذا ولا مال لتلك المملكة الصغيرة وكان يجب لحل هذه المشاكل نابغة من الرجال . ولكن العناية الالهية لم تبخل على ايطاليا بذلك . فقد شدت ازر ملكها الصادق الدعوة ، برجل من اعاظم الرجال الذين عرفهم التاريخ ، الا وهو كافور بطل ايطاليا الوحيد . فلم تمض الايام إلا ودخلت تلك الامارات في خبر كان ، واصبحت بلاد ايطاليا يخفق عليها علم الوحدة القومية الذى تقدسه الامم باجمعها .

المجاورة له، اذ ليس من وجودها غير الضرر. فاخذ يعد العدة، ويختلس الغرة.

وكان قد ظهر فى نجد في ذلك الحين المصلح الشهير محمد بن عبدالوهاب. وهو رجل قد تشبعت روحه بالمبادئ الدينية الصحيحة. فحاول القضاء على ما ظهر بين المسلمين من البدع والخرافات، وشرع ينشر آراءه الاصلاحية بين مواطنيه، فلاقت ترحاباً من البعض ونكراً من الاخرين.

وعندما اضطهد فى «حريملة» مسقط رأسه، أخذ يبحث عن القوة التى يستند عليها في نشر مبدأه. فالتجأ الى الامير محمد السعود، لأنه رءاه اقوى الامراء في تلك الديار. اما الامير محمد فقد رحب بهذه الحادثة التي وجدها قادرة على تفسير احلامه الجميلة فاعتنق مبدأ محمد بن عبدالوهاب، وعاهده على الاخذ بناصره، وهكذا كان. فقد اضرم الامير محمد نيران الوغى بينه وبين جيرانه الامرآء واحداً بعد الآخر، فكانوا يتساقطون فى ساحات المعارك سقوط اوراق الخريف، فيستولى على ديارهم وبذلك تمت وحدة البلاد النجدية.

وكانت الدولة العثمانية قد اوجست خيفة من هذا الامير الجبار فى ارادته القوية. اذ كيف تسمح بظهور دولة عربية قوية الشكيمة بجوار الحرمين الشريفين ربما تنازعها الخلافة في المستقبل، وهي تعلم ان الخلافة للعرب.

ولا يمكننا ان ننسى ان الدولة العثمانية كان باستطاعتها ان تغض النظر عن كل من يريد بها سوءاً، وتسكت عن كل عداء يوجه اليها من أي رجل يحاول ان يقتطع منها ممتلكاتها. ولكنها لا تهدأ ولا تصفح اذا رأت أميراً عربياً يريد ان يسترد ديار آبائه واجداده. وكان خيراً لها ان يأخذ تلك البلاد رجل غريب عنها لا يرتبط واياها بأية رابطة من ان يأخذها امير عربي له الحق بأخذها، وقد يكون لها عوناً ان الم بها خطب او نزلت بها نازلة. وهكذا كان من امر الدولة العثمانية عندما نهض الامير محمد السعود وقضى على الامارات النجدية.

فقد امرت حينذاك والي العراق سليمان باشا الكبير ان يتدارك الخطب قبل استفحاله، ويرسل حملة كبيرة الى نجد لاخضاعها وضمها الى العراق. وبذلك يقضي على آمال هذا الامير، ويخنق فكرته العربية وهي في مهدها. فجيش سليمان باشا جيشاً جراراً من قبائل العراق مع الجند. ولما وصلت هذه الحملة الى نجد، قابلها اميرها بجيشه اللجب، ودارت بين الجيشين رحى الحرب بعنف وشدة، ثم اندحر النجديون الى «الاحساء» وتحصنوا بها فالقى الجيش العثماني عليها حصاراً شديداً، اظهر في اثنائه النجديون استماتة في الدفاع عنها. ولما نفدت ارزاق الجيش تفرقت عنه القبائل التي كانت معه، فاضطر القائد ان يرفع الحصار ويعود الى بغداد.

وقد كانت هذه الوقعة فاتحة العداء بين نجد والدولة العثمانية،

الامير عبد العزيز بن محمد السعود بقبائله على العراق في سنة ١٨٠٢م فلم تتمكن القبائل العراقية من الدفاع الى ان وصل الى «كربلا» فجيش الوالى سليمان باشا جيشاً آخر من بغداد، فالتقى الجمعان بجوار كربلا، وبعد معارك دموية دارت بين الفريقين، اندحر الجيش الى بغداد، فرجع الجيش النجدي الى عرينه. وفى تلك الاثناء وقعت فتنة بين الشريف غالب واخيه عبد المعين على امارة مكة المكرمة، فاستعان عبد المعين بالامير ابن السعود، فزحف الامير على الحجاز واجتاح «الطائف» ودخل «مكة» واقام عبد المعين مكان أخيه غالب الذي فر من مكة الى جدة. ثم رجع الامير الى نجد فاغتاله رجل فارسى وهو يصلى، نطعنه بخنجر ارداه قتيلا.

فقام بعده بالامر ولده الامير سعود فاقتفى اثر أبيه وجده فى الفتوحات لتشييد ملكه. فضاقت الدولة العثمانية ذرعاً بأعمال هذا الامير الشديد البطش، بعد أن رأته قد استولى على نجد والحجاز وقسم كبير من شبه جزيرة العرب، واصبح حدود ملكه من الشمال صحراء سورية ومن الجنوب بحر العرب ومن الشرق خليج فارس ومن الغرب البحر الاحمر، وشرع يهدد العراق وسورية بحملاته المتوالية. فاوعزت الى عزيز مصر ان يجرد حملة على نجد لاخضاعها والقبض على اسدها الهصور.

وكان محمد علي ينظر متهيبا الى اعمال امير نجد، اذ كان يخشي

ان يقضي هذا الامير على مشروعه الذي كان يفكر فيه . فلما رأى ان الدولة العثمانية فكرت في القضاء عليه وانها استنجدت به ، رأى من الحزم ان يلبي طلبها ، ويحاول جهد استطاعته ان يمحق بغية هذا الرجل العظيم الذي ربما يكون له في المستقبل عقبة كأداء

اما امير نجد فبينما كان ينوي الهجوم على العراق ، طرق سمعه ان الحملة المصرية وصلت « ينبع » وتقدمت نحو المدينة النبوية فدلف لها واشتجرت الهيجاء بين المصريين والنجديين في عدة مواقع . وكان قد توفى الامير سعود في تلك الاثناء واستخلفه ولده الامير عبدالله .

وبعد ملاحم بلغت بها القلوب الحناجر ، شاءت الاقدار ان تدور الدائرة على امير نجد ، وان يطوى نشر تلك الامارة التي كان الامل فيها ان تحيي ما اندرس من مجد العرب ، وان تعيد لهم سالف ايامهم البيض منذ ذلك الوقت .

ويروى عن ابراهيم باشا بن محمد علي باشا قائد الحملة المصرية انه لما رأى ان الايام قد سالمته ، فاخضع نجداً وقبض على اميرها انشد هذين البيتين :

زعمت رجال العرب اني هبتها فدمى اذاً ما بينهم مطلول
يا نجدان لم اسق ارضك من دم يروي ثراك فلا سقاني النيل

وبعد ان طوقت النجديين بوائق الاحداث ، وضعفت فيهم قواعد القوة ، اخذ محمد علي ينظر الى المستقبل بعينين تطفح بشراً وسروراً .

عزيز مصر محمد علي باشا

نشأ هذا الرجل الكبير في نفسه ، الكبير فى ارادته ، الكبير في عزمه وحزمه ، وهو طموح الى المجد والعظمة . ولكن مسقط رأسه وهي مدينة « قوالة » الواقعة على الساحل من بلاد الرومللي لم تكن صالحة لمظهر نبوغ هذا الرجل الكبير . غير ان الحوادث الكونية التي تظهر فيها الرجال العظام لم تكن قليلة الحدوث . فقد شاء القدر ان تكون القاهرة مظهراً لاعمال هذا الرجل الذى ترك في التاريخ صحائف من البطولة لا يقدر على محوها تعاقب الجديدين



محمد على باشا

دخل القرن التاسع عشر وكان الحكم العثماني فى مصر قد رثت قواه ، وزمام السلطة بايدى المماليك . وكان قد جاء الى مصر سنة ١٧٩٨ نابوليون بونابارت فاستولى عليها عنوة واخضع امراءها المماليك واقام فيها مدة من الزمن . والدولة العثمانية تحاربه تارة وحدها وآونة بمساعدة انكلترا . الى ان دخلت سنة ١٨٠١ فارسلت الدولة العثمانية حملة من جهة البر والبحر . وقد رافقت القوة البحرية عمارة انكليزية تحت قيادة الجنرال هتشنون . وكان محمد علي في جملة المتطوعين الذين تجندوا في هذه الحملة بصفته معاون الى ابن مربيه علي اغا على ثلثمائة جندى الباني . فتغلبت القوى العثمانية على نابوليون بمساعدة حليفتها واخرجته من مصر . ثم ترك على اغا رجاله تحت قيادة محمد علي وعاد الى وطنه .

وبعد ان اخضعت الدولة العثمانية القطر المصري لحكمها وكبحت جماح المماليك ، عينت محمد خسرو باشا والياً عليه . فجاء خسرو باشا ونكل بالذين كانوا من اعوان الفرنساويين ومحالفيهم ، ثم جرد حملة لمحاربة المماليك الذين انسحبوا الى الصحراء ليستعيدوا قوتهم فيهجموا على القاهرة . وامر محمد علي الذي صار قائداً لاربعة آلاف من الالبانيين ان يلحق بالحملة لتقويتها . فذهب محمد على برجاله وقبل وصوله كانت الحملة قد اشتبكت بحرب دامية مع المماليك ، فدارت الدائرة عليها ورجعت بقية السيوف الى القاهرة . فاراد قائدها ان يتنصل من التبعة ويلحقها بمحمد على ، فابلغ خسرو باشا بان السبب

الوحيد الذي قضى على الحملة هو تباطؤ محمد على في سيره ، ولو انه اسرع بالمجيء لكان النصر حليفها دون شك وريب . فحقد خسرو باشا على محمد على وقرر الفتك به ، فبلغ الخبر مسامع محمد علي فلم ير من وسيلة الا ان ينحاز الى المماليك ليكون فى نجوة من عدوه . وفعلا انحاز اليهم واتحد معهم على اخراج خسرو باشا من القطر المصري فحاربوه ففر من القاهرة الى دمياط فساروا اليه واسروه ثم جاؤا به الى القاهرة وسجنوه فى القلعة .

وكان حينذاك للمماليك زعيمان ، عثمان الالفى ومحمد البرديسى يتنازعان السلطة فشرع محمد على بعد ان فرغ من امر خسرو باشا يبث الدسائس بين هذين الزعيمين حتى اوقعهما ببعضهما فتخلص من الاثنين . ثم طفق يستميل اليه قلوب المشايخ والعلماء الذين كان لهم النفوذ الاكبر في ذلك الوقت على الاهلين . ولم يزل يبذل مافى وسعه حتى تمكن بدهائه وحسن سياسته ان يكون هو صاحب الكلمة النافذة في القاهرة . وبعد ايام معدودات ورد له الامر من الاستانة بتعيينه والياً على مصر ، فاعتلى منصة الاحكام وتفرد بالسلطة . ومع كل ذلك فقد رأى ان امر مصر لايخلو له وفي البلاد اثر من المماليك الذين لابد وان يثوروا عليه فى مستقبل الايام عندما يرون انهم اصحبوا في قوة تمكنهم من ذلك . فأخذ يفكر في الامر وينصب شباك الايقاع بهم ، فخدمته المقادير في هذه المرة ايضاً . اذ توفى البرديسى وبعده بقليل توفي الالفى ، فتولى

الزعامة شاهين بك . فاوعز محمد على الى البعض من ذوى النفوذ ان يسعى في المصالحة بينه وبين شاهين بك فتصالحا وقدم المماليك الى القاهرة فاكرمهم محمد علي واغدق عليهم النعم الوافرة التي صرفتهم عما كانوا يفكرون فيه من استرداد كلمتهم المطاعة ، وقطعوا كل مالهم من الصلة بالماضى وانصرفوا الى كل مايسبب اللهو والعيش الهنيء .

ثم مرت الايام ومحمد على يفكر بايجاد الاسباب التي يقضى بها على المماليك ، الى ان سنحت الفرصة بمناسبة ارسال الحملة التي جردها على نجد لاقهار الامير ابن السعود . فاولم وليمة في القلعة دعا اليها وجوه القاهرة واعيانها وزعماء المماليك باجمعهم ، واوعز الى جنده ان يعملوا فيهم السيف والنار عند خروجهم من القلعة وقد نفذ الجند امره ولم ينج احد من المماليك . «١»

«١» فعل نفس هذه الفعلة قبل محمد على بمائة عام حامد القرماني مؤسس الامارة القرمانية في طرابلس الغرب .

كان حامد القرمانى قائداً لجند الفرسان في طرابلس الغرب تحت امر الوالى العثماني محمد خليل باشا سنة ١٧١١ فاساء الوالى الى الجند فكرهوه ، وذهبت هيبته من قلوب الناس فتمرد اهل غريان فكلف حامداً ان يذهب لاخضاعهم وفي اثناء ذلك استدعى الوالى الى الاستانة فذهب اليها وهو يحسب ثورة غريان تشغل حامداً مدة طويلة . لكنه لم يكد يبرح طرابلس حتى دخلها حامد واخذ الجند بناصره واعانهم اهل المدينة فولوه عليهم مع لقب « بيك طرابلس» اى امير طرابلس . على انه مازال خائفاً من زملاءه الضباط العظام لئلا يخونوه كما فعل هو مع اميره . فعزم على التخلص منهم . فدعا زملاءه الضباط والقواد الى —

قيام محمد علي واستيلاؤه على سورية

بعدان اخضع محمد على القطر المصري لحكمه، ودانت له البلاد قاصيها ودانيها، وازال الخطر الرهيب الذي كان يخشاه فى المستقبل من الديار النجدية، واخفت صوت اميرها اليعسوب شرع يطمح الى الاستيلاء على البلاد العربية، وانشاء دولة عربية كبرى مترامية الاطراف.

وقد رأى من الممكن الوصول الى هذه الغاية من وجوه:

١ــ ضعف الدولة العثمانية عن حماية تلك الاقطار اذا التحم القتال

٢ــ استبداد الولاة العثمانيين في الاهلين الذين اصبحوا نافرين من اعمال الجور والارهاق.

٣ــ عدم وجود زعيم كبير تأتمر المدن العربية بامره، فيزيل عنهم ما هم فيه من الكرب الشديد.

فجعل همه الاستيلاء على سورية لتكون حاجزا حصيناً بين

ـ وليمة فى قلعة طرابلس وهم ٣٠٠ نفس فجاؤا وقلوبهم مطمئنة. وكان قد اوصى خاصته ان يستقبلوهم واحداً واحداً ويقتلوهم ففعلوا ولم ينج منهم احد. ثم اخذ يفكر في استرضاء الحكومة العثمانية فجمع ماصار اليه من اموال أولئك المقتولين وبعثها هدية في سفينة الى السلطان احمد الثالث. فحازت قبولا وصدر الفرمان بتوليته على طرابلس مع لقب باشا.

وبقيت طرابلس تحت سيادة الاسرة القرمانية الى سنة ١٨٣٥ ثم ارجعتها الحكومة العثمانية الى حضيرتها اذ سيرت لها جيشا تحت قيادة نجيب باشا فقضى عن الاسرة القرمانية واعاد اليها الحكم العثماني.

شبه الجزيرة العربية وعاصمة السلطنة العثمانية ، فيخلوا له الجو للتبسط فى البلاد العربية .

وقد كان بينه وبين الامير بشير الشهابي امير جبل لبنان صداقة قوية فطلب اليه ان يبعث بجانب من الاخشاب من احراش جبل لبنان ، لبناء اسطول بحري بدل اسطوله الذي اغرقته الدول مع اسطول الدولة العثمانية في حرب المورة . فباشر الامير بشير اجابة طلبه ، فمنعه عبدالله باشا الخازندار والى صيدا ، وقد كان جبل لبنان تابعا فى تشكيلاته الادارية لايالة صيدا . فرأى محمد علي ان هذه خير وسيلة لاظهار منوياته ؛ فجرد لمقاصته حملة تحت قيادة ولده ابراهيم باشا فسار لحصار عكة ، فدك معاقلها ثم توغل فى البلاد السورية فانفذ له السلطان محمود جيشا بقيادة محمد باشا والى طرابلس الشام ، فاصطدم الجيشان بقرب حمص فكانت الغلبة للجيش المصري .

ولما تم لابراهيم باشا فتح سورية ، تقدم الى الاناضول فاستولى على اطنه وطرسوس الى ان وصل الى « قونيـة » .

وهنـاك التقى با لجيش العثماني الذى كان يقوده الصـدر الاعظم رشيد باشا . فدارت بينهما رحى الحرب على اشد ما يكون من الهول والرعب ، وفى النهاية كتب الله النصر لابراهيم باشا فمزق شمل الجيش العثمانى واسر قائده واخذ يهدد الاستانة عاصمة بني عثمان .

فخافت اوربا العاقبة من ان يختل التوازن الاوربي «١» فقامت لتوقفه عند هذا الحد . وحملت الدولة العثمانية على عقد معاهدة «كوتاهية» سنة ١٨٣٣ التي قضت بتولية محمد علي الحكم على سورية حتى جبال طوروس وعلى اقليم اطنه .

محمد علي والقومية العربية

لقد تضاربت آراء الكتاب المؤرخين في النزاع الذي حدث بين محمد علي باشا وبين الدولة العثمانية فمنهم من قال انه كان نزاعاً قوميا بين العرب والترك . ومنهم من قال انه لم يكن له مساس بالقومية . اما المسيو «باترو» والمسيو «دافيزيه ده بونتاز» فمن رأيهما ان النزاع كان نزاعا قوميا ، وان محمد علي كان يدافع عن العرب الذين عزموا عزما قاطعا على ازاحة نير الاتراك عن اكتافهم كما فعل اليونانيون والصربيون من قبلهم وقد قال البارون «بوالاكونت» معتمد فرنسا السياسي لدى محمد علي سنة ١٨٣٣ في حق ابراهيم باشا بن محمد علي باشا ما خلاصته :

يريد ابراهيم باشا ان يحيي مجد الامة العربية ، وان يعطي العرب حقهم في حكومة البلاد وفي الجيش ايضا . وقد ذكّر عساكره في اثناء حربه الاخير في سورية بماضي الامة العربية المجيد . وهو

«١» هذا هو السؤال الذي اوجدته ساسة الانكليز بعد موت لويس الرابع عشر ملك فرنسة . وحمله «وليم بت» ترسا بيمينه يطارد به نابليون حتى اوصله الى جزيرة القديسة هيلانة . وما زال من ذلك الحين مقياسا لتوازن الدول العظمى . يلعب بهم ويتلاعبون به كيف ما يشاؤون حتى اتت الحرب البلقانية فاحدثت به خللا شعرت به اوربا كلها . ثم اتت الحرب الكونية فلم يبق له من اثر

يقول يجب ان تكون كل البلدان العربية تحت حكم والده ، ولذا فانه يود ان يسيطر على بغداد والعراق العربي .



ابراهيم باشا

وقد سأله احد جنوده المقربين اليه مرة عن السبب الذي يجعله يطعن في الاتراك العثمانيين وهو منهم فاجابه ابراهيم باشا قائلا : انا لست تركيا . قدمت مصر طفلا وقد غيرتني شمسها منذ ذلك الحين فاصبحت الآن عربيا مثلك . وقد ردد لي مختار بك اركان حرب ابراهيم باشا المعنى نفسه على حدة .

وسواء كان النزاع قوميا او شخصيا ، فان محمد علي طمح الى الاستيلاء على البلاد العربية ، واراد ان يكون دولة عربية ، ويجعل

العرب يشعرون بانهم ابناء وحدة قومية عربية عظيمة . فى وقت لم يكن النظر فيه الى القوميات بل الى الاديان والمذاهب . وكان الاسلام في ذلك الزمن اقوى العوامل الاجتماعية في الشرق .

نقض السلطان محمود لمعاهدة كوتاهية

رضخ السلطان محمود لاحكام معاهدة كوتاهية مكرهاً ، وسكت على مضض . وكان يحاول سنوح الفرص ليثب على عدوه الذي مكنته يد القدر منه . فلما آنس من نفسه القوة ، وايقن بان جيشه صار قادرا على البطش بخصمه ، نهض لاستعادة سورية من محمد علي فارسل لقتاله جيشا بقيادة حافظ باشا ، فالتقى به ابراهيم باشا فى سهل نصيبين سنة ١٨٣٩ ولم تكن الا ساعات معدودة حتى تشتت الجيش العثماني بعد ان خسر الالوف من رجاله بين قتيل وجريح واسير .



السلطان محمود

وعلى اثر هذه الفادحة العظمى توفي السلطان محمود وخلفه السلطان عبد المجيد فولى خسرو باشا منصب الصدارة . وخسرو باشا كان عدواً لدوداً لمحمد علي ولقائد الاسطول العثماني فوزي باشا ، وكان فوزى باشا قد توجه باسطوله لاجل معاونة الجيش العثماني ، فلما اتصل به خبر التبدلات التي حصلت في عاصمة السلطنة ، ذهب باسطوله الى مياه الأسكندرية وسلمه الى محمد علي . واصبحت تركيا بين عشية وضحاها بلا جيش ولا اسطول وبلا سلطانها المخلص الخبير .

فعقد السلطان عبد المجيد مع روسيا وبروسيا والنمسا وانكلترا معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ سلم بمقتضاها ان يمنح محمد علي الحكم الوراثي على مصر ، وان يكون وحده دون اعقابه الحكم على جنوبي سوريا الشامل عكا ، على ان يتنازل لقاء ذلك عن سائر فتوحاته . غير ان محمد علي رفض هذا القرار رفضاً باتاً ، واراد ان تكون له سورية مثل مصر .

غلطة محمد علي

لقد كان رفض محمد علي منبعثاً من اعتماده على مساعدة فرنسا له . لان وزارة « تيرس » كانت قد وعدته بان تمده بالمال وتنجده بالجيش والاسطول ، وزادت على هذا الوعد ، انه عندما تحرج الموقف السياسي اخذت في التجهيزات الحربية علنا ، وجاهرت بان مصر لا تنال بضيم وهي تعضدها . فهذه المغامرة التي اقدم عليها

المسيو « تيرس » لم تغرر بمحمد علي وحده ، بل أوقفت فرنسا بازاء سائر الدول الاوربية موقفا محفوفا بالاخطار . وادرك الملك لو يس فليب خطورة موقف فرنسا بازاء المجتمع الدولي ، فاسقط وزارة « تيرس » واقام وزارة « جيزو » فابت هذه الاسترسال في الخطة العدائية التي سلكتها سالفتها ، واحجمت عن امداد محمدعلي بالمساعدات التي كان يرجوها من الوزارة السابقة . فاصبح محمدعلي فى عزلة تامة . وكان فوق ذلك فى حالة حرب مع خمس دول من اعظم دول الارض .

وعندما ابى التسليم بمعاهدة لندن ، اصدر السلطان عبد المجيد امراً بعزله عن الديار المصرية .



السلطان عبد المجيد

وخرجت عمارات الدول المتحالفة الى سورية لترغم ابراهيم باشا على الجلاء عنها ، ففتحت سواحل سورية . واقلعت العمارة الانكليزية الى الاسكندرية ، ففاوضت محمد علي في امر الصلح على ان يسلم سورية والعمارة العثمانية فى الحال ، وان يكتفي بالقطر المصرى له ولذريته من بعده . فرضي في الاخير بهذه النتيجة المؤسفة ، واصدر امره الى ولده ابراهيم باشا بالجلاء عن سورية والرجوع الى مصر .

وكان على محمد علي ان يرحب بمعاهدة لندن ويهتف لها في سره — ولو قصر سهمه عن الهدف الذى كان يرمى اليه — لانها كانت تطمن قسما كبيرا من مآربه . ولو انه قبل بسورية - مع كونها طعمة موقتة له - ومهد سبل الدعاية فيها ، ونصب شباكها لاستمالة قلوب الاهلين ، لقضى رويداً رويداً على الحكم العثماني فيها ، ولأصبحت سورية شمالها وجنوبها في حوزة يده ولسارت على خطاها بقية البلاد العربية ولكانت بلاد العرب غير ما هي عليه اليوم من تفكك العرى وتشتت الشمل . ولكن سوء حظ العرب - لا غير - هو الذي سبب هذه الغلطة الكبيرة فى حياة ذلك الرجل الكبير

الفصل الثالث

دعاة الفكرة القومية

تلاشت آمال محمد علي الذهبية ، ورجع عن سورية وهو ساخط على القدر الاهوج الذي لم يتح له ما كان صارفا جهده للوصول اليه

ومهما يكن من الامر فان لهذا البطل يداً بيضاء على القضية العربية . اذ ان النهضة العلمية التي اوجدها في وادي النيل ، اثرت تأثيراً طيبا على القطر السوري ، فاولدت فيه الحركة الفكرية التي كان لها الاثر الخالد في الاوساط العربية . ونشأ حينذاك رجال كانوا الكواكب اللامعة في سماء النهضة القومية ، وسيوفا قاطعة في صفوف المجاهدين العرب . وكان في مقدمتهم عبد الرحمن الكواكبي الحلبي . فانه ارتأى وجوب ارجاع الخلافة الى العرب واحياء ما كان لهم من المقام المحمود بين الامم . وقد رأى من الضروري ان يدرس حالة اعراب الجزيرة فشد الرحال وطاف الجزيرة ، وبقي يتنقل مدة من الزمن بين مجاهلها . وقد وضع سفراً قيماً وصف فيه رحلته وما شاهده في تلك الاصقاع المباركة ، غير انه ويا للاسف لم يطبع . والف كتابه « ام القرى » الذى حض فيه العرب على تأليف الجمعيات السرية التي توصلهم الى الغرض المقصود .

ثم الف كتابه «طبائع الاستبداد» وختمه بهذه الكلمات النارية :

ينازعني والله الشعور . هل موقفي هذا في جمع حي احييه بالسلام ، ام انا اخاطب اهل القبور فاحييهم بالرحمة . ياقوم لستم باحياء عاملين ولا اموات مستريحين . الى متى هذا النوم ؟ انتبهوا قبل ان يحل بكم القضاء .

يا قوم اعيذكم بالله من فساد الرأي وضياع الحزم وفقد الثقة



عبد الرحمن الكواكبي

بالنفس وترك الارادة للغير . فهل ترون اثراً للرشد في ان يوكل الانسان عنه وكيلا ، ويطلق له التصرف في ماله واهله ، والتحكم في حياته وشرفه ، والتأثير على دينه وفكره ، مع تسليف هذا الوكيل العفو عن كل عبث وخيانة واسراف واتلاف ، ام ترون انهذا نوع من الجنة ، به يظلم الانسان نفسه . بلى . ان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون .

ياقوم شفاكم الله ! قد ينفع اليوم ، الانذار واللوم ، واما غداً اذا حل القضاء ، فلا يبقى لكم غير الندب والبكاء . فالى متى هذا التخادع ، والى متى هذا التواني ، والى متى هذا التواكل . هل طاب

لكم هذا الذل ، وتودون لو تصحبونه في القبور . ام عاهدتم ان تصلوا غفلة الحياة بالممات ، فلا تفيقوا انفسكم من السبات قبل صباح يوم النشور .

يا قوم رحمكم الله ما هذا الحرص على حياة تعيسة دنيئة لا تملكونها ساعة . ما هذا الحرص على الراحة الموهومة ، وحياتكم كلها تعب ونصب .

هل لكم فى هذا الصبر فخر او لكم عليه اجر . كلا والله ساء ما تتوهمون ليس لكم إلا القهر في الحياة وقبل الذكر بعد الممات لانكم ما افدتم ولا استفدتم من الوجود بل اتلفتم ما ورثتم عن السلف ، وصرتم بئس الواسطة للخلف .

يا قوم حماكم الله . قد جاءكم المستمتعون من كل حدب ينسلون فان وجدوكم ايقاظاً عاملوكم كما يتعـامل الجيران ويتجامل الاقران . وان وجـدوكم رقودا لا تشعرون سلبوا اموالكم ، وزاحموكم على ارضكم ، وتحيلوا على تذليلكم وربطكم واتخاذكم كالانعام ، وعندئذ لو اردتم حراكا لاتقوون ، وتجـدون في وجوهكم الابواب موصدة ، والمسالك مسدودة ، لانجاة ولامخرج

يا قوم سامحكم الله ! لاتظلموا الاقدار ، وخافوا غيرة المنعم الجبار . الم يخلقكم الله احراراً لايثقلكم غير النور والنسيم ، فابيتم ألا ان تحملوا على عواتقكم ظلم الضعفاء وقهر الأقوياء ! .

لقد كان آباؤكم لاينحنون إلا ركوعا لله وانتم تسجدون لتقبيل

ارجل المنعمين وهم ينامون الآن في قبورهم مستورين اعزاء وانتم احياء معوجة رقابكم من الذل .

ايها العرب المسلمون ؛ ان انكر المنكرات بعد الكفر هو الظلم . فانهوا عن المنكر ان كنتم مؤمنين .

وانتم ايها العرب من غير المسلمين ، ادعوكم الى تناسي الاحقاد واجلكم عن ان لا تهتدوا الى وسائل الاتحاد وانتم المتنورون السابقون . فهذه امم آوستريا واميركا قد هداها العلم للاتحاد الوطني دون الديني . فما بالنا نحن لانفكر في ان نتبع احدى تلك الطرائق ، فيقول علماؤنا لمثيري الشحناء من الاعاجم والاجانب بيننا ، دعونا ياهؤلاء نحن ندبر شأننا .

دعونا نجتمع على كلمات سواء الا وهي : فلتحي الأمة ! فليحي الوطن ! ولنحي طلقاء اعزة ! . . .

وشرع بعد المرحوم الكواكبي بعض الأدباء والمفكرين ، يغنون بمجد العرب ويستحثون العزائم للنهوض . وقد اخذت تلك الاقوال توجه عزيمة السامع الى تحطيم الاصفاد ، وتحرضه على تقويض دعائم الظلم ، كما كانت تفعل مؤلفات فلاسفة الثورة الافرنسية ، امثال جان جاك روسو وفولتير ، لاحداث الانقلاب في الافكار .

ومن جملة تلك الاقوال التي تستفز النفوس مهما استحوذ عليها الجمود ، قول المرحوم نجيب الحداد من قصيدة طويلة :

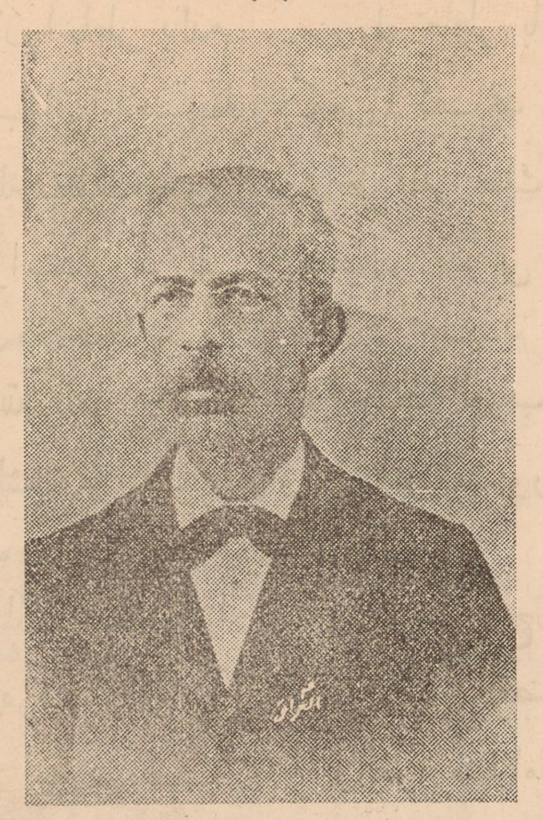
آن الاوان لأن اخاطر بالدم … من لم يخاطر بالدما لم يسلم
أجزيرة العرب التي احببتها … كم من اكف قد رمتك باسهم
لعبت اكف الترك فيك فغادروا … فى كل قطر منك نهراً من دم
قتلوا رجالك واستذلوا من بقى … فبقيت صرعى لليدين وللفم
وغدا العراق مع الحجاز غنيمة … وبلاد نجـــد سبية المتقسم
فلينقـــذ الله العلي جنوده … وليحفظ العرب التي لم تأثم

وقول الشيخ يوسف النبهاني الشاعر المشهور من قصيدة طويلة يصف فيها حالة العرب فى الاستانة :

ويممت دار الملك احسب انها … الى اليوم لم تبرح الى المجد سلما
فالفيتها قد اقفرت من كرامها … ولم يبق فيها الفضل إلا توهما
والفيت فيها امة عربيـــة … يرى القوم منها امة الزنج اكرما
وما نقموا منا بني العرب خلة … سوى ان خير الخلق لم يك اعجما

واول قصيدة ثورية ، انطبعت على صفحات الارواح والواح النفوس . فاثارت الهمم من مكمنها واخذت الناشئة العربية تترنم بابياتها الحماسية ، هى قصيدة الشيخ ابراهيم اليازجى التي يقول فيها:

تنبهوا واستفيقوا ايهـــا العرب
فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالآمال تخـــدعكم
وانتم بين راحات الفنا سلب
الله اكبر ماهذا المنـــام فقد
شكاكم المهد واشتاقتكم الترب



الشيخ ابراهيم اليازجي

كم تظلمون ولستم تشتكون وكم
تستغضبون فلا يبدو لكم غضب

ألفتم الهون حتى صار عندكم
طبعاً وبعض طباع المرء مكتسب

وفارقتكم لطول الذل نخوتكم
فليس يؤلمكم خسف ولا عطب

لله صبركم لو ان صبركم
في ملتقى الخيل حين الخيل تضطرب

كم بين صبر غدا للذل مجتلبا
وبين صبر غدا للعز يجتلب

فشمروا وانهضوا للامر وابتدروا
من دهركم فرصة ضنت بها الحقب
لا تبتغــوا بالمنى فوزاً لانفسكم
لا يصدق الفوز ما لم يصدق الطلب
خلو التعصب عنكم واستووا عصباً
على الوئام ودفع الظلم تعتصب
لأنتم الفئة الكثرى وكم فئة
قليلة تم اذ ضمت لها الغلب
هذا الذي قد رمى بالضعف قوتكم
وغادر الشمل منكم وهو منشعب
وسلط الجور فى اقطاركم فغدت
وارضها دون اقطار الملا خرب
وحكم العلج فيكم مع مهانته
يقتاد كم لهواه حيث ينقلب
سلاحهم فى وجوه الخصم مكرهم
وخير جندهم التدليس والكذب
لا يستقيم لهم عهد اذا عقدوا
ولا يصح لهم وعد اذا ضربوا
اعناقكم لهم رق ومالكم
بين الدمى والطلى والنرد منتهب

باتت سمان نعـــاج بين اذرعكم
وبات غيركم للدر يحـــتلب
فصاحب الارض منكم ضمن ضيعته
مستخـدم وربيب الدار مغترب

ومنها:

بالله يا قومنـــا هبوا لشأنكم
فكم تناديكم الاسفار و الخطب
الستم من سطوا في الارض واقتحموا
شرقاً وغربا وعزوا اينما ذهبوا
ومن اذلوا الملوك الصيد فارتعدت
وزلزل الارض مما تحتهـــا الرهب
ومن بنوا لصروح العز اعمـــدة
تهوى الصواعق عنهـا وهي تنقلب
فمالكم ويحكم أصبحتم هملاً
ووجه عزكم بالهون منتقب
لا دولة لكم يشتـــد ازركم
بهـــا ولا ناصر للخطب ينتدب
وليس من حرمة او رحمـــة لكم
تحنو عليكم اذا عضتكم النـــوب

اقداركم فى عيون الترك نازلة
وحقكم بين ايدي الترك مغتصب
فليس يدرى لكم شأن ولا شرف
ولا وجود ولا اسم ولا لقب

* * *

فيا لقومي وما قومي سوى عرب
ولن يضيع فيهم ذلك النسب
هب انه ليس فيكم اهل منزلة
يقلد الامر او تعطى له رتب
وليس فيكم اخو حزم ومخبرة
للحل والعقد في الاحكام ينتخب
وليس فيكم اخو علم يحكم فى
فصل القضاء ومنكم جائت الكتب
اليس فيكم دم يهتاجه انف
يوماً فيدفع هذا العار اذ يثب

* * *

فاسمعوني صليل البيض بارقة
في النقع انى الى رناتها طرب
واسمعوني صدى الباروت منطلقا
يدوي به كل قاع حين يصطخب

* * *

لمن يبق عندكم شيء يضن به
غير النفوس عليها الذل ينسحب
فبادروا الموت واستغنوا براحته
عن عيش من مات موتا ملؤه تعب
صبراً هيا امة الترك التي ظلمت
دهراً فعما قليل ترفع الحجب
لنطلبن بحد السيف مآربنا
فلن يخيب لنا في جنبه ارب
ومن يعش ير والايام مقبلة
يلوح للمرء فى احداثها العجب

وعندما اشتد السخط فى اواخر القرن التاسع عشر على حكومة تركيا المستبدة اسست الجالية السورية وفي مقدمتهم خليل غانم في باريس سنة ١٨٩٥ « الجمعية الوطنية العربية » واخذت تنظم القيام بدعوة ثورية ضد الحكم التركى .

واصدر نجيب العازوري اللبناني سنة ١٩٠٥ كتاباجليلا سماه « يقظة الامة العربية في آسيا التركية » استحث فيه العرب على استرداد حقوقهم المهضومة .

وقد نشرت الجمعية الوطنية سنة ١٩٠٦ منشورا موجهاً الى الدول العظمى جاء فيه ما يلي :

ان في المملكة التركية انقلابا فكريا سلميا يوشك ان يبين . ذلك

ان الأمة العربية التي قسمها الترك طوائف ومذاهب، حتى تم لهم ان يسوموها سوء العذاب، قد انتبهت من غفلتها، فعرفت ان لها قومية وطنية تاريخية جنسية فهي تحاول ان تنفصل عن تلك الشجرة التركية النخرة وتنشيء لها ملكا عربيا مستقلا.

ولهذه الدولة حدود طبيعية تبتديء من دجلة والفرات الى برزخ السويس، ومن البحر المتوسط الى بحر عمان. وتكون هذه الدولة سلطنة دستورية حرة يتولى امرها سلطان عربي.

وفي المنشور كلام موجه الى العرب هذا نصه:

بني وطني الأعزاء!

كل منا يرى بأم عينه عظم ما صار يلقاه العربي الشريف الكريم من المذلة والازدراء اليوم. حتى غدا اسمه موضوع المهزأة عند الاجانب، ولاسيما الترك. وكل منا شاهد لما قد وصلنا اليه من البؤس والجمود والجهل، في عهد هؤلاء البرابرة الذين طموا على بلادنا من آسيا الوسطى. فبلادنا وهي جنة الله في ارضه، قد اصبحت اليوم خاوية على عروشها. فلما كنا امة حرة، فتحنا العالم باقل من عشرة عقود من السنين، ونشرنا في امم الارض مختلف العلوم والفنون والآداب، وظللنا عدة قرون حماة الحضارة وممهدي سبل العمران.

ولكن منذ نشبت فينا مخالب ابناء «ارطغرل» واغتصبت الخلافة منا، غدونا نقيم على القهر والذل. فخربت بلادنا، واقفرت ارضنا،

وتضعضعت حالتنا تضعضعاً ما رأى مثله شعب آخر في الارض .

وقد كان لهذه الاقوال وقع شديد في البلاد العربية . فاخذ يضطرم فيها سعير الثورات بين آونة واخرى ، الا انها كانت اقليمية الموضع ولما حصل الانقلاب العثماني ، وأرادت « جمعية الاتحاد » ان تتناسى الشعوب العثمانية جامعتها ، وان يكون لشعبها وحده القوة والمنعة والاستئثار ، اتقدت جذوة العصبية القومية في نفوس العرب ، واصبحوا يرمون اليها بكل ما لديهم من حول وقوة . وانبرى رجالهم المفكرون حينئذ يطالبون الحكومة جهراً باسترداد حقهم المسلوب

الفصل الرابع

الانقلاب العثماني وتقويض دعائم الحكومة المستبدة



السلطان عبد العزيز

في دور السلطان عبد العزيز وقد كان علي باشا حينذاك رئيساً للوزارة ، تغير اصول وراثة الاريكة الخديوية في مصر . فبعد ان كانت السلطنة المصرية تنتقل الى اكبر الاولاد حصروها في اولاد

الخديوي اسماعيل باشا ، بما بذله هذا من الاموال الطائلة التي رزحت تحت اثقالها الذهبيــــة حكومة الاستانة ولم تقو على مقاومتها . وافضت النتيجة الى حرمان اخيه الامير مصطفى فاضل باشا من التربع فى دستها . فكانت هذه الضربة قوية عليه ، فدفعته الى الانتقام من آل عثمان ، ودعته للتداخل في شؤون الدولة العثمانية وشرع يسعى ومراجل الحقد تغلى فى صدره للوصول الى مايريده .



اسماعيل باشا الخديوى

ولد مصطفى فاضل باشا فى القاهرة سنة ١٨٣٠ وحصل العلوم الجديدة حتى صار على جانب من العرفان والاطلاع ، والوقوف على دقائق الامور فخدم مصر . وبعد جلوس السلطان عبدالعزيز

بسنة تعين وزيراً للمعارف في الاستانة ، ثم وزيراً للمالية واجرى فيها عدة اصلاحات ، وكان رئيس الوزارة اذ ذاك يوسف كامل باشا صهر الخديوي محمد علي باشا الكبير . وكان عالي باشا في وزارة الخارجية ، وفؤاد باشا في رئاسة مجلس الاحكام العدلية ثم في وزارة الدفاع ، وادخل فيها حينئذ حسين عوني باشا العدو الألد لعمر باشا المجري . وكان فؤاد باشا تعين حكماً لفصل الخلاف المستحدث بين مصطفى فاضل واخوته على تقسيم ميراث ابيهم ، فحصل بينهم رقابة وعداوة فلما تولى فؤاد باشا رئاسة الوزارة تسبب في عزل مصطفى فاضل من وزارة المالية مع ماله من الخدم والاصلاحات المفيدة . ثم اتته الضربة القاضية على آماله بحرمانه من عرش الخديوية ، في عهد وزارة عالي باشا فهب مصطفى فاضل للاخذ بالثار ، وقد رأى من الحزم ان يتظاهر بما يستميل



عالي باشا

اليه الافكار والقلوب . فاسس حزباً دعاه « الحزب الحر العثماني » واستمال اليه الكاتب الشهير نامق كمال بك ، والشاعر المشهور ضياء باشا وغيرهم من الأدباء والمحررين . ولم يلبث الحزب قليلا إلا وقد اخذ يتسع نطاقه ، فدخل فيه سعد الله باشا ، وسليمان باشا وآية الله بك ومحمد بك ونوري بك ، ورشاد بك ، وهم يومئذ قادة الرأي الأدبي في المملكة العثمانية . وشرعوا يبثون بين طبقات الامة حب الوطن والحرية ، ويصورون لها سراً ما آلت اليه المملكة من التقهقر والانحطاط بسبب استبداد اولي الامر وما كانت عليه في المبدأ من العظمة والمجد الباذخ . وقد اخذت تعاليمهم تنتشر رويداً رويداً بين زوايا المملكة وخباياها .



فؤاد باشا

ثم ارتحل مصطفى فاضل الى باريس سنة ١٨٦٥ وقدم للسلطان عبد العزيز لائحته الشهيرة التي شدد فيها النكير على الاستبداد، وكشف الغطاء عن حوادث الدولة، وبين اسباب الضعف والانحطاط وسوء الاستعمال بجرأة لم يعتدها رجال الدولة وقد افتتح اللائحة بهذه الكلمة :

يا صاحب الجلالة !

ما اصعب وصول كلمة الحق الى حظيرة الملوك والامراء، البطانة تحجبها او تخفيها، والملوك سكارى بخمرة الملك، منصرفون عن الصواب بلذة السلطان.



الامير مصطفى فاضل باشا

يظنون ان الامم اذا تعبت فيما كسبت ، واذا ساءها حال فيما اهملت ، وان الدول اذا دالت ، فذاك طوعاً لقضاء لامرد له .

يحتاج المرء فى استقبال الواقع ، وطرح الخيال ، الى اخلاص واقدام ، وهو احوج الى ذلك ليبلغ الامر وما فيه للسلطان .

وقد لخص فيها سياسة تركيا فقال :

تتصور اوربا ان المسيحيين وحدهم فى تركيا خاضعون للمعاملات الاستبدادية ، ولاحتمال انواع الأذى الذي هو وليد الظلم ، وليس الامر كذلك . فان المسلمين ربما كانوا اشد مظلومية واكثر انحناءً تحت نير العبودية من المسيحيين . لان المسلمين ليس وراءهم دولة اجنبية تدافع عنهم . فرعايا جلالتكم من جميع المذاهب يقسمون الى قسمين . القسم الاول الظالمون ظلما لاحد له . والقسم الثاني المظلومون بلا شفقة ورحمة . والاولون يجدون فى الحكومة المطلقة الغير المحدودة التي تستعملها جلالتكم والتي اغتصبوها ، اغراء وتشويقاً على جميع الرذائل . اما الآخرون فتفسد اخلاقهم بعلائقهم المضرة مع ساداتهم وحيث انهم مكرهون على الخضوع دائما للشهوات الرذيلة ، ولا يستطيعون ايصال شكاياتهم المحقة لأعتاب سدتكم الملوكية - لأن ظلامهم يرون هذه الاستغاثة الاحترامية بحكومة جلالتكم من اكبر المفاسد - فقد اعتادوا دناءة الاخلاق التي لا يمكن تصورها .

ثم ختمها بقوله :

يا جلالة السلطان !

ارجع الى ضميرك قبل غيره ينبئك بما وجب عليك في هذا الزمان ، حيث اخذت رعيتك الحيرة ، وحاق بها الاندحار في كل معنى ، ذاك عمل ماجد ، لا يأتيه إلا من خصه الله بفضيلة الاقدام من فعله خلد التاريخ اثره وما بقي مخلوق إلا شكره .

وقد التحق بالامير مصطفى فاضل فئة من الشبان فاكرم مثواهم ، وانفق على تعليمهم ، ونبغ منهم عدة رجال في الأدب والكتابة والسياسة واصدر هناك جريدة « مخبر » اولا وجريدة « حريت » ثانيا .

وكان الساعد الأقوى لمصطفى فاضل باشا ، خليل شريف باشا الذي جاء من مصر الى الاستانة ، واستخدم فى وزارة الخارجية وصار سفيراً لباريس وغيرها ثم وزيرا للخارجية وتزوج اكبر بنات مصطفى فاضل باشا ، وهي الاميرة الشهيرة نازلي هانم التي اقتفت اثر والدها وزوجها في تعضيد الحزب وساعدته بالمال والجاه هي وشقيقها الامير محمد علي باشا .

جمعية الاتحاد والترقي وكيفية نشوءها

وقد حدث اثناء ذلك ان استعر وطيس الحرب بين الدولة العثمانية وبين دولة روسيا فدارت الدائرة على الدولة العثمانية ، وخرجت من الحرب منهوكة القوى متضعضعة الاطراف . وكانت هذه الحادثة من اقوى العوامل لتقوية مبدأ « الحزب الحر العثماني » الذى لقي مسرحا واسعاً لتمثيل ادواره ،

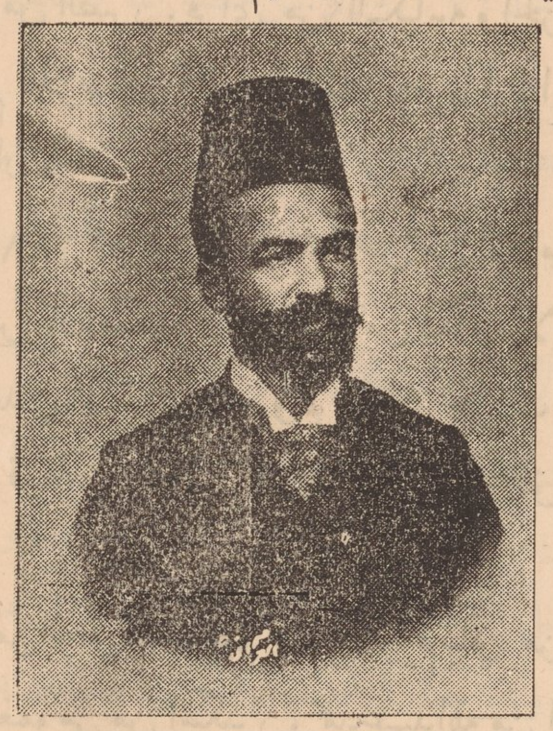
ثم حدثت حادثة اخرى لاتقل اهميتها عن الحرب التي وقعت وهي عزل زكي باشا من نظارة المدرسة الطبية ، وتوظيف مارقو باشا الرومي عوضه . وكانت رجال الروم لا تألو جهدا بما يؤل على الاتراك من الضرر ، فرأى من الكياسة والحزم ان يسعى بادخال تعاليم الحزب الى المدرسة لتتشرب بها ارواح التلامذة وقد كان ماكان .

ففي سنة ١٨٨٩ اجتمع اربعة اشخاص من التلامذة فاقسموا يمين الاخلاص بان يسعوا لآخر قطرة من دمائهم لاحياء وطنهم وانقاذه من ايدي المستبدين به . وهم عبدالله جودت من عربكير محمد رشيد من قوقاس ، حكمت امين من قونية ، اسحق سكوتي من ديار بكر .

وبعد قليل من الزمن التحق بهم عبد الكريم ثباتي من طربزون ، شرف الدين مغمومي من اسكدار ، محمد عبيدالله من ازمير ، علي شفيق محرر جريدة « در سعادت » علي رشدي من بوسنه سراى ابراهيم مراد الشهير بدكتور تمو بك من اوخرى .

وقد اجتمعوا لاول مرة بدلالة ابراهيم مراد خارج سور الاستانة فى حديقة مدحت باشا ، وهناك بعد ان اقسموا يمين الاخلاص اسموا جمعيتهم « جمعية الاتحاد والترقي » ونظموا لها برنامجا عينوا فيه الوسائل التي تقيهم من ايدي الحكومة ، وكيفية تكثير افراد الجمعية ، وطلب الاصلاحات الدستورية ، والمساواة

بين اصناف الرعية وحرية القول والعمل ، وضمانة الارواح والاموال ، وتقييد الملك بالقوانين ، وغيرها من المباحث الهامة وعينوا رئيس الاجتماع علي رشـــدي والـكاتب شرف الدين مغمومي وامين الصندوق ابراهيم مراد .



الدكتور ابراهيم مراد بك

واخذت الجمعية من ذلك الحين تنمو نمواً هائلا ، وتنتشر انتشاراً يستوقف العقل ، ومضى عليها خمس سنوات والحكومة في عمىً عنها وعن اخبارها . الى ان دخلت السنة السادسة ، فذهب الدكتور ابراهيم مراد اثناء عطلة الدراسة الى بلدة اوخرى التابعة لولاية مناستر، وكان هناك البكباشي «المقدم» كامل بك منفياً، فاراد ادخاله في الجمعية ، فقص عليه القصص ، واخبره بجلية الامر ظاهره وباطنه

فخانه الرجل وابرق للسلطان عبدالحميد يخبره المسئلة بحذافيرها ، فاستجلب عبدالحميد ابراهيم مراد محفوظا ، وشرعوا باستنطاقه في قصر يلدز وكان الثبات فى المبدأ الذي اظهره لم يدعهم ان يظفروا منه بطائل ، فاطلقوا سراحه . وعند هذه الحادثة لقي المتشردون والذين يتصيدون فى الماء العكر ، لهم رأس مال ألا وهي الجاسوسية وقداخذت تنتشر فى انحاء المملكة العثمانية وشرعت اعضاء الجمعية تبث مبادئها بكل عزم وقوة .

ولم يمض ردح من الزمن حتى طرد الدكتور ناظم بك من المدرسة الطبية على اثر وشاية بعض الجواسيس ونفي الى طرابلس الغرب ، ومن هناك هرب الى باريس .

جمعية الاتحاد خارج البلاد العثمانية

كانت باريس حينذاك قد هبطها بعض من لم ترق فى اعينهم ادارة بلادهم امثال المؤرخ الكبير مراد بك ، وقد هرب اليها من الاستانة .



مراد بك

كان مراد بك من اشد العثمانيين غيرة على الدولة . وهو كاتب بليغ تقلب في مناصب عديدة في مصلحة الديون العامة وفى المدرسة الملكية وغيرها . وكان له مكانة عالية بين ارباب الاقلام فى الشبيبة التركية . ولما انشأ جريدة «ميزان» زادت شهرته ونهضت الجمعية في ايامه نهضة حسنة ، واشتد ساعد الاحرار فاخذوا يجاهرون بمطاليبهم . فكتب مراد بك تقريراً في الحالة الحاضرة ورفعه الى السلطان ، فلم يعبأ به رجال البلاط ولكنهم خافوا عاقبة عمله . وصدرت اليه الاوامر من الجمعية المركزية ان ينوب عنها بنشر آرائها فى الخارج .

خرج مراد بك من الاستانة فعظم سفره على رجال البلاط وبثوا الارصاد والعيون للبحث عنه او القبض عليه . وتنبهت الجمعية المركزية للخطر فقبضت على شعبها بيد من حديد . وراقبتها مراقبة الساهر اليقظ ، واتحدت كل شعبها يداً واحدة . وعزمت على ابراز مهمتها الى حيز العمل ، فقررت مفاجأة مجلس الوزراء في اثناء اجتماعه بالباب العالي بخلع السلطان عبد الحميد ، واعادة السلطان مراد او اعادة ولي العهد مكانه . وعولوا فى تنفيذ هذا القرار على قائد الفيلق الاول فى الاستانة يومئذ كاظم باشا .





كاظم باشا

وبينما هم يتحفزون للعمل إذ قدم نجيب باشا سفير تركيا في «مدريد» سابقاً، بعض الاعتراضات على طرق التنفيذ فاخروا القرار للنظر فيه، فآل التأخير الى فساد العمل كله. وذلك انه كان في جملة الحاضرين ليلة البحث نادر بك مدير مدرسة «نمونهٔ ترقي» وهو سكرتير الجمعية المركزية، فرد على نجيب باشا بصوت عال قائلا:

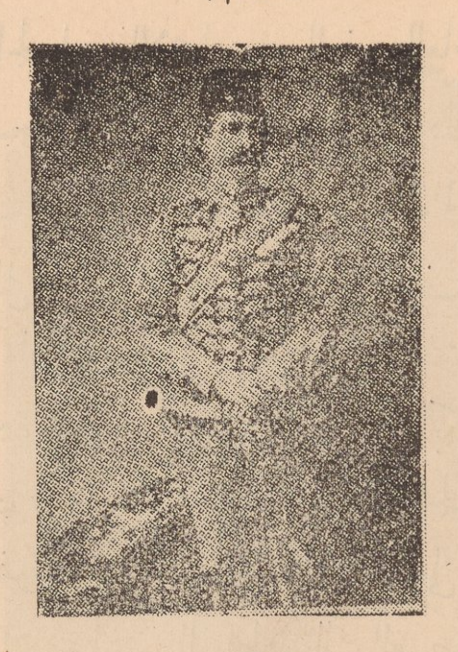
ياصديقي اني آسف جداً لعنادك لأن التأجيل الى الغد يضرنا ، وويل للذين لا يكونون معنا .

فوقعت كلماته في اذن بعض السامعين ، فوشى به الى البلاط فساقوه الى السلطان و بعد مقابلة خصوصية اعترف باسماء كثيرين من الاعضاء ، فطافت الشرطة تقبض على الذين سماهم فتسجن البعض وتنفي الآخرين .

أما الذين نجوا من هذه المعركة ، فقد تفرقوا في اوربا ومصر والتفوا حول مراد بك واحمد رضا بك . وقد كان احمد رضا بك سنة ١٨٩٢ مديراً للمعارف العامة فى « قونية » ثم فر منها على أثر اصلاحات اشار باتخاذها ، ويمم باريس وتفرغ لخدمة بلاده . وقد اشتدت ثقة اعضاء الجمعية المركزية في الاستانة به ، فولوه نيابتها في اوربا ، فانشأ باسمها فى باريس جريدة سماها « مشورت » وصار للجمعية من ذلك الحين نائبان احدهما احمد رضا بك صاحب جريدة مشورت فى باريس ، والآخر مراد بك صاحب جريدة ميزان بمصر ثم ذهب بعد ذلك صاحب ميزان الى باريس

تضعضع الجمعية

ورأى رجال البلاط ان الشدة لا تفيد في استئصال اعضاء الجمعية ، فعمدوا الى الاسترضاء فارسلوا اليهم احمد جلال الدين باشا احد كبار الجواسيس ، فابلغ مراد بك ان جلالة السلطان يوافق الاحرار على الاصلاحات المطلوبة ، ولكنه يسألهم هدنة يتمكن بها من الاصلاح .



احمد جلال الدين باشا

وكان قد دعا زعماء الجمعية وعرض عليهم استبقاء حياتهم والانعام عليهم اذا أذعنوا ورجعوا . فخدع الاحرار واكثرهم اذ ذاك كان لهم اهل في البلاد ومصالح يخافون عليها فقرروا ما يأتي :

١ — انهم يوافقون على الهدنة ولكنهم لا ينزعون سلاحهم

٢ — يرفضون كل انعام او مكافأة شخصية .

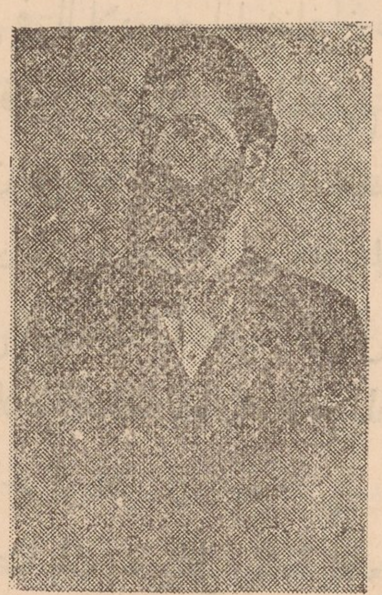
٣ — ان مراد بك يشخص وحده الى الاستانة تحت رعاية الدولة ، فيعرض نفسه لهذا الخطر رغبة فى مصلحة الجمعية

٤ — يتعهد جلالة السلطان بالاصلاح المطلوب ، ويعفو عفواً عاما عن كافة الاحرار .

٥ — ان احمد رضا بك يبقى على رئاسة الجمعية الى ان تنجز الوعود

فبعث احمد جلال الدين باشا المشار اليه برقية الى البلاط بهذه

الشروط ، فجاء الجواب بالايجاب وبالعفو العام عن الاحرار سواء كانوا في السجون او في المنفى . وبناء على ذلك انحلت جمعية الاتحاد ، وتعطلت جريدة ميزان وسافر مراد بك الى الاستانة ومعه حكمت بك . وظل حلمي بك في جنيف ، وشرف الدين مغمومى بك في باريس لاتمام الدروس ، وتعين احمد بك جوروك صولو في « بلغراد » عاصمة الصرب ، وشفيق بك في « بكرش » عاصمة رومانيا . واعلنت جرائد الاستانة في عيد الجلوس من تلك السنة صدور العفو عن المجرمين السياسيين على جاري العادة ، ولكنه لم يقع فعلا . واغتنم السلطان تلك الفرصة لاخراج المحكوم عليهم فى سجن « طاش قشلة » وامر بنفيهم ، فنفوا بعضهم واسترضوا آخرين وفي جملتهم مراد بك ، يقال انه رضي يأساً من النجاح وخوفا على اهله . فتشتت شمل الجمعية وخارت عزائم اصحابها الا اثنان من مؤسسيها هما الدكتوران اسحق سكوتي وعبد الله جودت .



الدكتور اسحق سكوتي بك



الدكتور عبد الله جودت بك

فاستأنفا احياءها والعود الى الجهاد في سبيل الحرية ، فانشاءا فى جنيف جريدة سمياها « عثمانلي » لم يمض عليها بضعة اشهر حتى اصبحت عالية الصوت . ولكن الاحوال تبدلت وذهبت تلك الوحدة ، وتبعثر الاعضاء فى اربعة اقطار المسكونة ، وقلت ثقة الناس بهم وبالحصول على ما يرجونه من الاصلاح .

نهضة الجمعية

على ان جماعة منهم ما زالوا يتحدثون بالجمعية وبطلب الاصلاح حتى جاءهم الداماد محمود باشا صهر السلطان عبد الحميد ، غاضباً على الحكومة وناقماً على صاحب السيادة . فاحيا آمالهم وجدد عزائمهم



الداماد محمود پا

خرج الداماد محمود باشا من الاستانة مع نجليه الاميرين صباح الدين ولطف الله . وكان رحمه الله من كبار رجال الدولة واهل الفضل . وهو ابن الاميرال خليل باشا ، رقي في مناصب الدولة حتى صار سفيراً لها في باريس ثم وزيراً للعدلية .

واول شيء فكروا فيه احياء جمعية الاتحاد والترقي التي يرجى منها اصلاح الدولة . فكتب الداماد الى مدير جريدة مشورت أحمد رضا بك يدعوه الى الظهور ونصرة الحقيقة ويشجعه على الجهاد في سبيل الوطن فاجابه المومى اليه ووافقه على ذلك .



احمد رضا بك

ثم كتب الداماد الى السلطان فى ٢١ كانون الثاني سنة ٩٠٠ كتابا شديد اللهجة ذكر فيه الاسباب التي حملته على الخروج من وطنه، وضمنه كثيراً من اوجه الانتقاد والتقريع ما يضيق المقام عن نشره

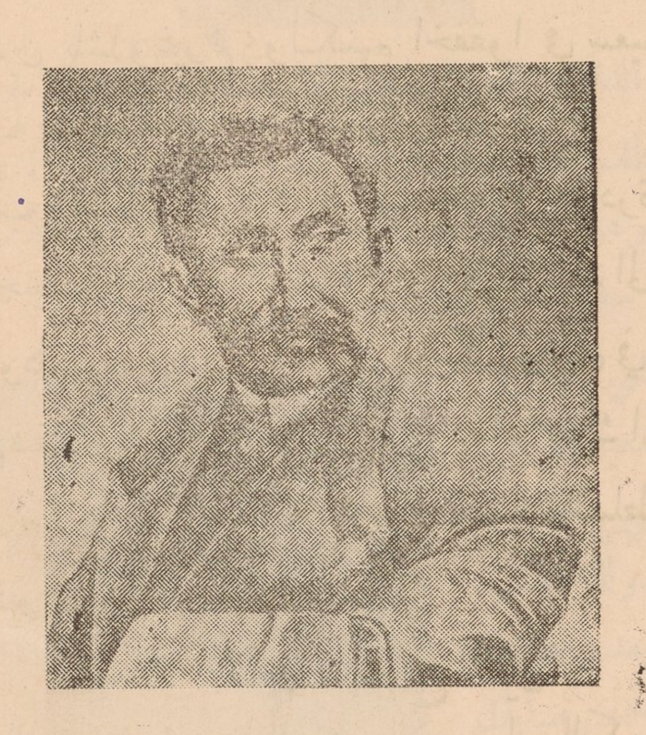
وشرع البلاط الحميدي يوسط السفراء فى باريس وغيرها لاسترضاء الداماد بالوعود والعهود. ومن جملة الذين سعوا في ذلك الاسترضاء منير باشا وطرخان باشا ونوري بك واحمد جلال الدين باشا وغيرهم، ولكنهم اخفقوا في سعيهم، اذ لم يسمعوا منه الا جواباً واحداً، ألا وهو الاصلاح.

واصيب الداماد بعد ذلك بمرض الجاه الى مغادرة باريس فسافر الى جنيف ومنها الى القاهرة فكورفو ثم عاد الى باريس ومنها الى اوكلس بقرب بروكسل في بلجيكا. وتوفى في اوكلس سنة ١٩٠٣ فنقلا ولداه جثته الى باريس ودفناها هناك الى اعلان الدستور ثم نقلاها الى الاستانة ودفناها فى حضيرة السلطان محمود في شارع ديوان يولي.

مساعي الامير صباح الدين

بعد وفاة الداماد محمود باشا نهض بالامر ولده الكبير الامير صباح الدين وتفرغ لنصرة الاحرار فجمع المشتتين منهم في اوربا فبلغ عددهم ٤٧ رجلا. والف منهم مؤتمراً فى باريس تحت رئاسته والقى فيهم خطاباً شجعهم ونشطهم، واحيا آمالهم، واستحثهم على الثبات، وجمع كلمة الامم المختلفة تحت اسم العثمانيين بلا تمييز في

المذهب والجنس والح في التحريض على الوفاق بين الطوائف والاجناس واحياء الوحدة العثمانية . واستمد مساعدة الدول الادبية فى ذلك . ووضع برنامجاً مطولا بهذا المعنى وافقه فيه الاحرار إلا قليل منهم شق عليهم توسط الدول ، منهم احمدرضا بك فكتب فى ذلك فصولا عديدة فى جريدته ، لكن الاكثرية غلبت وكان لها تأثير في اوربا وقد اتت بالنتيجة المطلوبة .



الامير صباح الدين

وعلى ذلك عادت شعبة جمعية الاتحاد والترقي فى باريس الى العمل ، وتألفت لها لجنة بحثت فى تفاصيل الاصلاح اللازم للدولة من حيث السياسة والاجتماع والتعليم وغيره . واكثرهم بحثاً فى ذلك ، الامير صباح الدين . وخطته في السياسة استقلال

الولايات باعمالها الداخلية مع اجتماعها في الامور العامة تحت العلم العثماني وفي ظل الجيش العثماني. وهذه خلاصة برنامجه :

١ — نشر العلم والادب وترغيب الامة العثمانية فى المطالعة والنظر ، حتى تفهم معنى الاستقلال الاداري .

٢— توثيق عرى المودة والأخاء بين الأجناس المختلفة التي يتألف منها الشعب العثماني .

٣— الدفاع عن حقوق الدولة .

٤— انشاء الجمعيات الوطنية والشركات واللجان للتعاوز على ردع الظالمين ، ونشر لواء الحق .

وحرّض اعضاء الجمعية على انشاء الجمعيات والشعب في انحاء المملكة العثمانية ، توصلاً الى هذه الغاية . فتعددت الجمعيات فى بلاد الدولة حتى في اواسط آسيا الصغرى . وانشأ في سنة ١٩٠٦ صحيفة سماها « ترقي » لمكاتبة الاعضاء في تركيا والخارج . وسعى سعياً حثيثاً فى التقريب بين العناصر المختلفة . وقد آلت خطته هذه الى جمع كلمة الاحرار من كل الطوائف ، وجدّد الهمة فى الطلب ، وانظم اليه جماعة من كتاب الاتراك وغيرهم فانشأوا شُعباً للجمعية في اطراف المملكة . فانتظم فيها خيرة ابناء البلاد من عسكريين وملكيين ، وجعلوا قاعدة سعيهم الاتحاد بين العناصر والمذاهب ، وعلى هـــذه الخطة سارت جمعية الاتحاد والترقي حتى بلغت مطلبها من الدستور .

فوز الجمعية واعلان الدستور

كان مركز الجمعية قد انتقل الى سلانيك ، حيث ساحة العمل اوسع من الاستانة . وكان من اشهر اعضائها الذين يمتازون بالحزم والجرأة طلعت باشا الذي كان يومئـــذ سكرتيراً لدائرة البرق والبريد فى سلانيك ، ومدحت شكري بك محاسب دائرة المعارف فيها ، وجاويد بك مدير مدرسة التفيض في سلانيك ايضا . وكانت المخابرة متصلة بينها وبين الجمعية المركزية في باريس . وقد رأت الجمعية ان الفوز لايقترن بعملها ويصبح مضمونا اذا لم تستحث الضباط وترغبهم في الدخول ، فعنيت فى نشر مبادئها بينهم فانتظم فيها كثيرون منهم .

وارسلت الجمعية في سنة ١٩٠٧ الدكتور ناظم بك مندوبا من قبلها ، لبث دعايتها في ازمير ، فتزيا بزي الدراويش ، وطاف بلاد الاناضول كلها مشوقا اهلها فى الدخول في الجمعيـــة ، فنجح نجاحا باهرا . وقد اعانه على ذلك احد الاعضاء الغيورين في ازمير وهو طاهر بك .



الدكتور ناظم بك

وهناك ضابط له فضل كبير في تهيئة معدات هذا الفوز ايضا وهو اليوز باشي «الرئيس» حسن طوسون بك. فانه خرج بايعاز من الجمعية الى الاناضول وطافها مرتين فانشأ الشُعب فيها ولاسيما في ارضروم. ولما اطلعت الحكومة على امره اوقفته وحكمت عليه بالسجن الشاق فى الاستانة عشر سنين، وقد افرج عنه عند اعلان الدستور.

وبلغ اهل البلاط كثرة انتظام الضباط والموظفين في الجمعية بسلانيك، فاخذوا يستقدمون المتهمين فيها الى الاستانة بحجة النقل او الترقي، فخاف سائر الاعضاء الفشل كما حصل قبلا، فعزموا على مباشرة الامر، واخراج تلك المهمة الى حيز الظهور واول حركة جهادية حصلت بخروج الضابط الشهير نيازي بك واعلانه الثورة ضد السلطة الحميدية.



نيازي بك

وكان اكبر مساعد له فخري باشا والي ولاية مناستر يومئذ



فخري باشا

فالف نيازي بك عصابته واعتزل في الصحراء، بعد ان كتب الى اولي الامر في رسنة وسلانيك ما ياتي :

ابلغكم اني تركت خدمة الحكومة لاجل خدمة الوطن . وانا مستعد ان اموت ليكون وطني سعيداً حراً .

واقتدى بالمشار اليه نيازي بك، زميله انور بك . وتبعهما امثالهما من الضباط الاحرار، ومنهم ايوب صبري بك، وحسن بك وصلاح الدين بك وغيرهم . وتألفت عصابة في كل ناحية وفي كل قرية .



انور بك

فلما علم البلاط بذلك ، اصدر امراً الى شمسي باشا قائد جيش مناستر ، ان يطارد الثوار ويقضي على عصاباتهم . وكان المومى اليه مشهورا بتفانيه في حبه للسلطان عبدالحميد وبمقاومته لافراد الجمعية . ولكنه برصاصة واحدة اطلقها عليه الضابط عاطف بك جعلته صريعا يتخبط بدمه .

وعند هذه الحادثة ، لم ير السلطان عبدالحميد بداً من ان يذعن لمطالب الجمعية حقناً للدماء ، فاعلن الدستور . وقد ابتهجت بذلك قلوب سكان المملكة العثمانيـــة على اختلاف مللها ونحلها . واستقبلت اعلان الدستور بثغور باسمة ، وهي لم تدر ما يخبأ لها القدر في المستقبل القريب .

الفصل الخامس

اعلان الدستور العثماني

رضخ السلطان عبدالحميد في نهاية الامر لطلب جمعية الاتحاد واعلن الدستور سنة ١٩٠٨ وسقطت وزارة فريد باشا الالباني . وتألفت الوزارة الجديدة برئاسة سعيد باشا الكردي الملقب بالصغير . على انه لم يبق فى دست الوزارة إلا ثلاثة ايام ثم سقطت وزارته لأن الجمعية لم تكن مطمئنة اليه . فتألفت وزارة برئاسة كامل باشا القبريسي .



سعيد باشا

وفرت حينذاك حاشية السلطان عبد الحميد واصحابه من الاستانة .



جمال الدين افندي

فهرب عزت باشا العابد الى انكلترا ، وجمال الدين افندي شيخ الاسلام الى مصر ، وسليم ملحمة باشا وزير الاحراش والمعادن الى ايطاليا ، وفهيم باشا احد كبار الجواسيس الى بورسة وقد قتل هناك . ومن لم يستطع الفرار فقد مات قهراً من جرآء مالحقه من الضيم والاهانة ، امثال الشيخ محمد افندي ابي الهدى الصيادي الحلبي واما بقية الوزراء والمقربين ، مثل ممدوح باشا وزير الداخلية وهاشم باشا وزير المعارف ، وحسن رامي باشا وزير البحرية ، وزكي باشا مشير المدفعية ، وعلي رضا باشا السر عسكر (اي وزير



ممدوح باشا



هاشم باشا

الدفاع» و تحسين باشا السكرتير الاول فى البلاط . واسماعيل باشامفتش المدارس العسكرية وغيرهم ، فقد القي القبض عليهم وسجنوا فى جـــزيرة الامراء «بيوك اطه» .



اسماعيل باشا



علي رضا باشا

لمحة في شخصية عبد الحميد وسياسته

لقد اجمع كتاب الغرب ورجاله المفكرون، على ان السلطان عبدالحميد كان يعد في مقدمة الدهاة المعاصرين.

وكان عاقلا حازما شجاعا رابط الجأش عند وقوع اكبر الملمات. اقترح عليه الوزراء حين وصول الجيش الروسي مظفرا الى (سان استفانوس) ان يذهب الى بورسة خوفا من ان لا تقبل روسية بشروط الصلح، فيدخل الجيش الاستانة، ويقع اسيرا وهناك الطامة العظمى. فرفض عبدالحميد هذا الاقتراح باشمئزاز قائلا:

ان الفرار لا يليق بابناء آل عثمان.

ولما طلب الروس الاسطول العثماني قال عبد الحميد:

خير لي ان اركب في احدى سفن الاسطول وادمره بيدي

واغرق معه ، من ان اسلمه للعدو .

فاكتفت روسيا بالجواب ولم تلحف بالطلب وهذا مما يدل على منتهى عزة النفس والأباء.

ومما يدل على رباطة جأشه ، فرقعة « الديناميت » التي وقعت على بضعة اقدام من مركبته وهو ذاهب الى الجامع لاداء صلاة الجمعة ، فلم يكترث بها بينما رجال حاشيته الذين كانوا في ركابه لم يبق منهم احد الا وقد لاذ بالفرار من هول الحادثة .

اما سياسته ؛ فكانت سياسة اسلامية عثمانية . وكان شديد النفور من العصبيات الجنسية ، ومن الذين يدعون اليها . وكان يرى الخطر كله حول السياسة العنصرية . فلذلك كان يبذل عطفه نحو كل الشعوب المنضوية تحت العلم العثمانى . لا فرق في ذلك بين تركيها وعربيها وشركسيها وكرديها والبانيها وكرجيها ولازيها وروميها وارمنيها ويهوديها .

ولم يكن عبد الحميد من الذين يحبون اراقة الدماء . اذ لو كان كذلك ، لاثار حرباً ضروساً على خصومه حينما ارادوا تحطيم سلطته . كما فعل الذين من قبله من ملوك اوربا ، عندما هب الشعب يطالب بارجاع حقه المهضوم .

وكان في مقدوره اخماد الثورة قبل ان يندلع لهيبها الى بلاد الروملى المجاورة الى مناستر . فضلا عن ان تصل الى الاستانة ، ثم تعبر البوسفور متطرقة الى ديار الاناظول . ولو فرضنا انه لم يكن قادراً على قمع الثورة . وكان على اعتقاد جازم ، انه مهما بذل

من الشدة والمقاومة ، فلا بد من فشله في النهاية ، فعلى الاقل كان في استطاعته ان يقاوم الى آخر سهم في كنانته ، فيجرى الدماء انهاراً في انحاء الامبراطورية العثمانية قائلا :

فليكن بعدى الطوفان .

وكان في وسعه ان يفعل ذلك . لان معظم الجيش المرابط في الروملى كان في قبضة يده مع ان سكان الأناظول والجيش الذى فيه كانوا يؤلهونه . وقسماً كبيراً من البلاد العربية ايضاً لم يكن يعرف سلطة تحت السماء غير سلطة السلطان عبد الحميد . ومن هنا يظهر ان عبد الحميد لم يكن يحب اراقة الدماء كما قيل عنه . ولكن حاشيته واهل بلاطه لم يكونوا من الذين يريدون خيراً للامة والوطن ، بل كانوا من الزعانف الذين يحبون الاصطياد دائماً في الماء العكر . وهم الذين كانوا السبب الوحيد في تشويه سمعة عبد الحميد ، بما كانوا يأتونه باسمه من المنكرات .

اما عدم منحه الدستور للامة ، فقد كان يعتقد بان الامة العثمانية لم تك تبلغ الشأو الذى يؤهلها لان تكون امة ديمقراطية يتساوى فيها الضعيف والقوي في الحقوق .

واذا كان هنالك من لوم يوجه على عبد الحميد ، فهو عدم اخذه التدابير لجعل الامة العثمانية اداة صالحة للسير بها في طريق الحضارة والعمران .

وكان عليه ان يمهد السبل لها ، فيجعلها اهلا للحكم الدستوري

كالامم التى ادركتها العناية الالهية فاضحت فى بحبوحـة من العيش الرغيد .

لقد أعلن الدستور سنة ١٨٧٧ بمساعى مدحت باشا ورفاقه وفتح مجلس الامة . فكان الواجب يقضى على عبد الحميد ان يكون هو الرقيب عليه ، فيمشي به مشياً وئيـداً حسب سنة النشوء والارتقاء . ولكن زينت له بطانته ان يفض المجلس ويفرق اعضاءه ايدى سبا . ثم حسنت له الانفراد بالحكم والاستئثار بـه . ولم يكفها ذلك ، بل تمادت في اعمالهـا المنكرة حتى اضعفت المرؤة والوفاء ، ونزعت الثقة من الناس ، وشوهت بما كانت تأتيه من الموبقات سمعة عبد الحميد .



مدحت باشا

وقد كان عبد الحميد كما قـدمنا لا ينظر الى الفوارق الجنسية والمذهبية . فقد كان كثير من الوظائف الرئيسية يشغلها غير الترك

جنساً ومذهباً . فهذه الوزارة التى اعان الدستور في زمنها ، كان

رئيسها فريد باشا البانياً ، ووزبر احراشها ومعادنها سليم ملحمه



فريد باشا



سليم ملحمه باشا

باشا عربياً مسيحياً ، كما كان اخوه نجيب ملحمه باشا مستشاراً
لوزارة النافعة ، وشفيق باشا الكوراني الحلبي ناظراً للضبطية
« مدير الامن العام » وعزت باشا العابد سكرتير السلطان عبد
الحميد والذى كان بيده الحل والعقد عربياً مسلماً ، وناظر الخزينة
الخاصة او خانس باشا رجلا ارمنيا . ناهيك بما كان من النفوذ
والكلمة المطاعة لابى الهدى افندى الصيادى الحلبى واعوانه ،
والشيخ ظافر افندى الطرابلسى وحاشيته . وبما كان من غير الترك
في مجلس شوري الدولة ، ومجلس المعارف ، ومجلس امانة العاصمة

من الاعضاء الذين كان يغدق عليهم السلطان عبد الحميد كثيراً من نعمه وآلائه .



عزت باشا العابد

وهـذه كلها ادلة قاطعة ، على ان السلطان عبد الحميد كان ينظر الى الشعوب التي تستظل بالراية العثمانية ، بنظر واحـد . وهو ليس لشعب على آخر ميزة خاصة .

وكان على يقين من ان اليوم الذي تفترق فيه هذه الشعوب عن بعضها ، هو اليوم الذي يتحطم فيه عرش آل عثمان .

جمعية الاتحاد بعد اعلان الدستور

شرع اعضاء الجمعية الاتحادية بعد ان اعلن الدستور ، يأتون زرافات ووحدانا الى الاستانة من الروملل . ورجع جميع المنفيين الذين كانوا فى خارج المملكة العثمانية وداخلها ، اليها . وانتقل مركز الجمعية من سلانيك الى الاستانة .

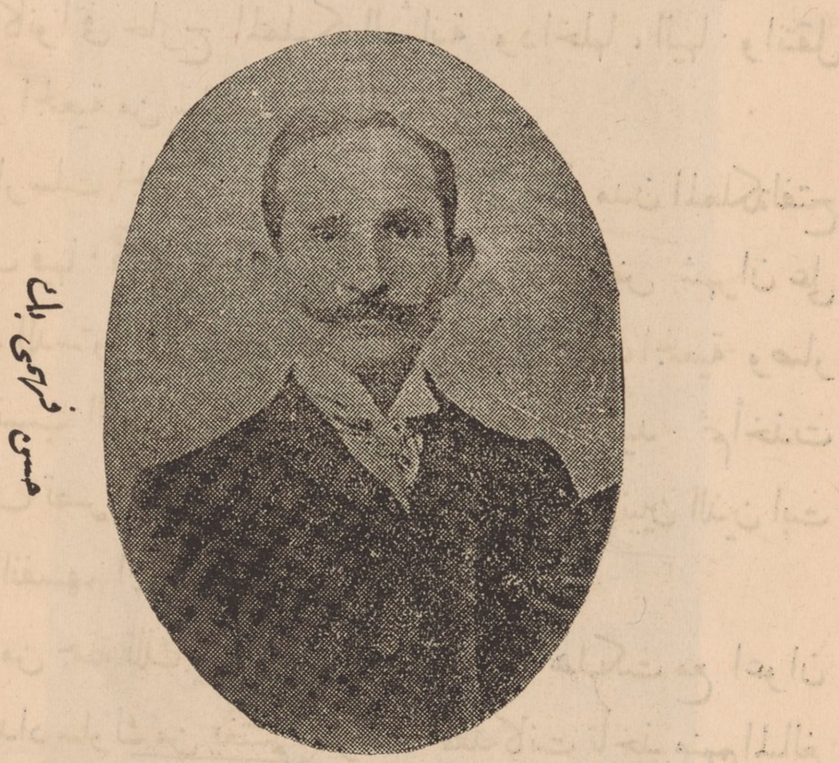
ثم ارسلت الجمعية مفوضين من قبلها الى سائر مدن المملكة لفتح الشعب فيها ، فتسارع الناس في الدخول ولم يمض شهران على اعلان الدستور ألا وقد انتظم خلق كثير فى سلك الجمعية . وصار كل منتسب اليها يعد نفسه بطل الانقلاب العتيد . ثم أخذت تتصرف تصرفا اساء الكثيرين من الاحرار العثمانيين الذين ابت عليهم انفسهم ان ينضووا تحت لوائها .

ومن جملة تلك التصرفات الغريبة ، انها سلكت مع اعوان الاستبداد سلوك من يغتنم الفرصة فقد كانت تأخذ منهم المبالغ الكبيرة تغريماً لهم ، ثم تضمهم الى صفوفها . وتعهد بالمناصب لغير الاكفاء فتساعدهم على الترقي فى وظائف الدولة ثم طفقت تظهر بمظهر السلطة المستبدة غير المسئولة ، حتي اصبحت الناس ممتعضة من تصرفاتها الشائنة ، قائلة :

ان جمعية الاتحاد قد ازالت استبداد البلاط وآثرت استبدادها

فنهض لفيف من الاتراك الاحرار واسسوا حزباً دعوه « حزب الاحرار » ليكون رقيبا على اعمال الجمعية ، ولكن الجمعية لم يرق

فى عينها تأسيس ذلك الحزب بعد ان جعلت زمام وضع ادارة الحكومة تحت سلطتها ونفوذها . فقررت ان تبطش به ، وبالفعل قتلت غيلة احد اعضائه حسن فهمي بك محرر جريدة « سربستى » الذى كان ينتقد اعمالها انتقاداً مراً .



ثم شرعت تعبث باستقلال الوزارة وتبسط نفوذها فى دوائر الحكومة كلها . وكان رئيس الوزارة حينذاك كامل باشا القبريسي .

كامل باشا والجمعية الاتحادية

كان هذا الشيخ الوزير قد ذاق من اعوان الاستبداد الامرين فقد وشى به المقربون من عبد الحميد فعزل من رياسة الوزراء ونفى الى حلب بحجة تعيينه والياً عليها ، ثم نفى الى ازمير وبقى ١٢

ســنة هناك منفيا وفي النهاية صدر الامر بنفيه الى جزيرة « رودس » وبقى فيها الى ان اعلن الدستور فذهب الى الاستانة والف وزارته بعد سقوط وزارة سعيد باشا الكردي .



كامل باشا

وكان كامل باشا في بادئ الامر يحترم الجمعية ويقدس مبادئها ويحتمل لهم منة تلك الايادي البيضاء على ماقامت به من الواجب الوطني . ثم لما رآها اخذت تخرج على مبادئها التى اختطتها لنفسها بتصرفاتها الشخصية ، ضعف ايمانه بها وقل احترامه لها وبدأ يناوئ تصرفاتها ، فشمرت الجمعية عن ساعدها لزحزحته عن

كرسى الرياسة ، وأخذت تنظم الخطط وتتخذ الوسائل لأسقاطه وقد زار الاستانة في تلك الاثناء اعضاء اللجنة البلقانية الانكليزية المؤسسة في « لندن » .

فذهب البكباشى اسماعيل حقى بك «١» ورحمى بك «٢» ليلا الى كامل باشا وقالا له :

ان اعضاء اللجنة التى أتت الى الاستانة . صوبنا ان تكون دعوتهم نهار غد فى منزلك لوليمة عشاء يحضرونها .فقال لهما :

اني اجهل وصول هؤلآء الاعضاء الى الاستانة ، ولا اعلم مركزهم ومنزلتهم في بلادهم لعدم ورود شيء يعرفنى عن ذلك لامن سفير الدولة فى لندن ولا من سفير انكلترا هنا . فاستغرب دعوتكم هذه لأشخاص لامعرفة لي بهم ، ولم تسبق لي مقابلة معهم الى تناول العشاء في منزلي من غير ان يكون عندي علم بذلك كانكم تدعونهم الى فندق . وهو أمر لااستصوبه لعدم موافقته للاصول . بل يجب ان اتعرف بهم قبل كل شيء واقابلهم ، وبعد ذلك اعد لهم الوليمة فى يوم معين .

فغضب اسماعيل حقى بك ورفيقه رحمي بك من هذا الجواب وذهبا تواً الى البلاط وقابلا احد الامناء وقالا له :

«١» لقد تعين بعد هذه الحادثة متصرفا الى ايبك التابعة لولاية قوصوة في الروමللى ثم تعين واليا على بتليس . «٢» هو رحمى بك السلانيكلى الشهير الذى كان مندوبا عن ولاية سلانيك في مجلس الامة ثم تعين واليا على ازمير.



اسماعيل حقي بك

اعرض الآن لصاحب الجلالة ان يسترجع الختم السلطاني من رئيس الوزارة « اى ان يعزله » والا نذهب غـــداً بالقوة العسكرية الى ديوان الوزارة ونخرجه منه قسراً · على انه قد تقرر اسقاطه في اول اجتماع المجلس « ١ »

فهال الامين هذا الكلام فاجابهم قائلا :

وما السبب في ذلك ؟ اني لا استطيع عرض هذه المسئلة على جلالته في مثل هذا الوقت ، فالاحسن ان تحضرا غداً لنفهم ما فى الامر ونعرضه على صاحب الجلالة ·

وعلى ذلك ذهبا وعادا فى اليوم التالي وبرفقتهما ضابط آخر ،

« ١ » كان موعد اجتماع مجلس النواب بعد اسبوعين من هذه الحادثة .

واجتمع بهم كامل باشا بدعوة خصوصية حسب الارادة الصادرة له ، وكان معهم احد الأمناء. فسألهم كامل باشا :

من قبل من ارسلتم ؟ فاجابوه بأنهم حضروا من قبل الجمعية فقال لهم :

وهل الجمعية راضية عن مراجعتكم لصاحب الجلالة في مثل هذا الطلب ؟ !

اجابوه نعم ان الجمعية توافق على كل ما نعمله .



رحمي بك

فأعاد عليهم كامل باشا ما قاله لهم في الليل من عدم موافقته على اقتراحهم في مسئلة الدعوة وزاد عليه بقوله :

ان عزل رئيس الوزارة بلا سبب وبدون ان يستقيل مخل بما نص عليه الدستور ،

نعم الدستور الذي بذلت الجمعيـة اقصى جهدها لاسترداده وان خدمتي الآن في هذا الزمن المحفوف بالمخاطر ليس إلا تفاديا مني في حب الوطن . وليس لاجل التفاخر ولا لجر منفعة . قال لهم هذا الكلام بشدة واشمئزاز ، فقاموا وانصرفوا من غير ان يفوهوا ولا بكلمة .

وبعد ان مضى اسبوع على هـذه الحادثة ، احتفل حزب الاحرار فى عيد استقلال الدولة العثمانية في « فندق برابالاس » ودعى لهذا الاحتفال كامل باشا . فلم يرق ذلك فى نظر الجمعية فاوفدت اليه احمد رضا بك فى اليوم الثاني ، فاشار في حديثه معه الى عدم استحسان ذهابه الى الحفلة المذكورة فقال له :

انني بصفتي رئيس الوزراء يجب ان احضر الاحتفالات التي تقام من قبل اي حزب كان ، تذكاراً لمثل هذه الاعياد الوطنية المقدسة ، وان هذا لهو امر طبيعي . فزاد جوابه هذا في موجدة الجمعية عليه ، وقد هيج حزازاتها . وصارت تنتظر الفرصة لاسقاطه ، حتى تقرر تعيين ناظم باشا [1] وزيراً للدفاع . وعلمت الجمعية ان النظام العسكري سيعود قريبا الى ربوع الجيش بواسطة هذا الوزير الحر النشيط . فلم يرق ذلك ايضا في نظر الجمعية ، وكان مجلس النواب قد فتح فى تلك الاثناء ، فاحدثت الجمعيـة هياجا في المجلس واسقطت وزارة كامل باشا وعينت خلفا له حسين حلمى باشا .

« ١ » هو ناظم باشا الذى تعين فيما بعد والياً على بغداد

ثورة ٣١ مارت

لما رأى اصحاب الشخصيات المريضة ما رأوا من نفوذ الجمعية ، وشهدوا ما شهدوا من انصياع اهل الحل والعقد لارادتها ، نفروا اليها خفافا سراعا ، وبايديهم المال الوفير يقدمونه قربان الزلفى وحسن المآب . غير ان الجمعية لم تقنع بذلك . بل طفقت تطلب المزيد من المال الذي لا تشتد شوكتها الا به ، ولا تستحكم شكيمتها ويدوم سلطانها الا بواسطته . فاوعزت من طرف خفي الى الوزراء السابقين واصحاب الوظائف الضخمة والتجار الذين لهم الثروات الطائلة ، ان يمدوا الجمعية بما لديهم من الاموال . فركض كل من اولئك الى مركز الجمعية ، وافتدى نفسه من الخطب الذي ألم به ، حسب قدرته وغناه ، فاجتمع لدى الجمعية المال الوفير . ومع كل ذلك لم يرو غليلها ، اذ كانت عطشى الى جمع المال . فاخذت تلتفت يمنة ويسرة تفتش عن انهار الذهب والفضة لتسد به نهمتها فاستوقفت بصرها تلك الهضبة العالية المطلة على البوسفور . فهمس اعضاؤها فى آذان بعضهم لبعض .

نعم ان فى قصر « يلدز » ما تطمئن اليه النفوس وتنتعش به الارواح . فيجب ان يكون القصر وما فيه من الكنوز لنا . ومن هو الذي احق منا بذلك ياترى ؟ .. يجب ان ينزل عبدالحميد عن العرش ، ونجلس فوقه «نطاراً» «١» لا يضر ولا ينفع ، ونستولى

«١» النطار بضم النون وهو الخيال المنصوب بين الزرع . والعامة تسميه خراعة خضرة .

على ما في زوايا « يلدز » من خبايا الكنوز. فشرعت تنصب شراك الدس وشباك الفتن ، فرتبت ثورة ٣١ مارت بمساعى رجل يسمى درويش وحدتي الذي اسس جمعية دعاها الجمعية المحمدية واصدر جريدة « فولكان » تدافع عن مبدأ الجمعية . وقد انخرط في سلك هذه الجمعية كثير من السذج والبسطاء الذين هم بمعزل عن دخائل السياسة والاعيبها . ثم طفقت الجمعية الاتحادية تنادي بالويل والثبور قائلة :

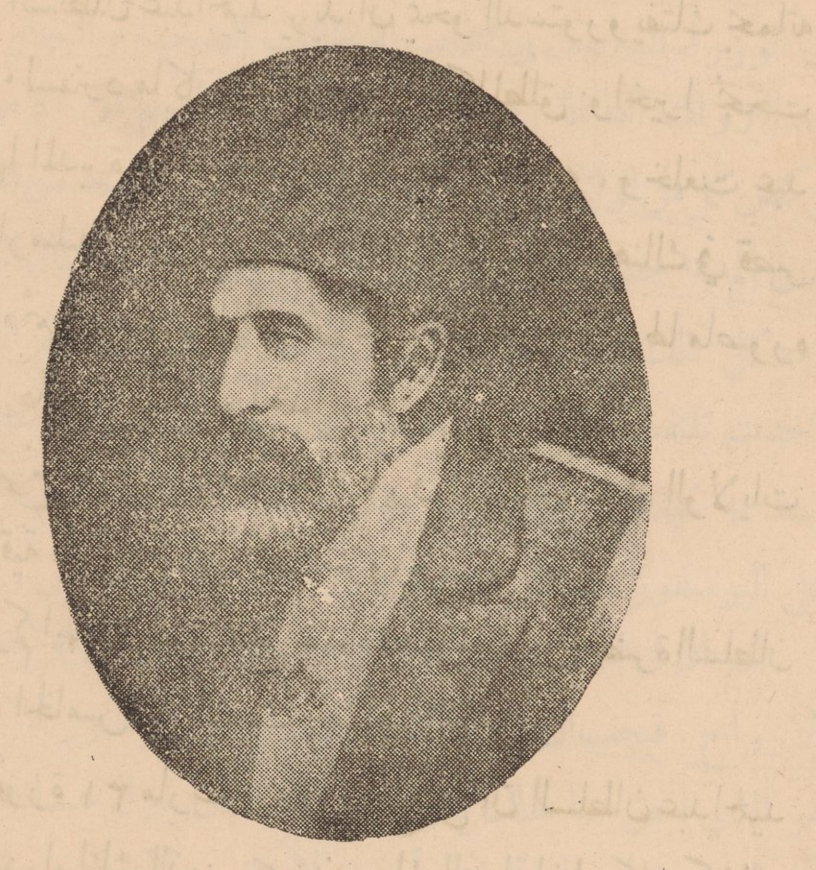
ان السلطان عبدالحميد يريد أن يمحو الدستور ويفتك بحماته وابطاله ، ليسترد ما كان يتمتع به من الحكم المطلق . واخيرا نجحت فى خطتها المدبرة ، واستولت على القصر وما فيه ، وخلعت عبد الحميد وارسلته مخفورا الى ولاية سلانيك فسجنته هناك في قصر الاطيني « ثم اجلست على العرش ذلك « النظار » وتم لها ما صوره اليها فكرها من المكر والخداع .

واسرع مركز الجمعية العام فابرق الى الفروع فى الولايات هذه البرقية التى تدل على عظم سروره :

نبشركم ايها الاخوة بخلع عبدالحميد واجلاس حضرة السلطان محمد خان الخامس على التخت العثماني العالى .

وفي ثورة ٣١ مارت برهان ساطع على ان السلطان عبدالحميد لم يكن من اولئك الذين يحبون سفك الدماء اذ لو كان كذلك لقاتل رجال الجمعية قتالا ترقص له جماجم الابطال ، ولا جرى

الدماء انهاراً في شوارع الاستانة . على ان اعتصامه بمعاقل «يلدز» يقيه كل سوء يراد به . حيث ان قصر يلدز الواقع على اعلى هضبة في الاستانة ، امنع من عقاب الجو . بما فيه من الرجال والعتاد والمدافع والذخائر الحربية . ولكن عبدالحميد المتوفرة لديه كل اسباب القوة ، لم يعمل شيئاً ، بل وقف مكتوف الايدي ، راضخا لاحكام القدر . ولم يقاتل احداً من الذين استطالوا عليه ، فخلعوه واحتلوا قصره ظلما وعدوانا .



السلطان عبدالحميد

الفصل السادس

هبوب رياح العصبية الجنسية

قبضت الجمعية الاتحادية على زمام الحكم بعد ان انزلت عبدالحميد عن العرش . ثم استبدت بالامر ذلك الاستبداد الفظيع الذي هلعت له القلوب ، فاضحى كل شعب من الشعوب العثمانية يهمس بين آونة واخرى :

لا حرّ بوادي عوف . ثم يجهر منشداً :

كان عبدالحميد بالأمس فرداً فغدا اليوم الف عبدالحميد

ولما فتح مجلس الأمة ، رأت الجمعية ان نواب الترك في المجلس اقلية ضئيلة بالنسبة الى نواب الشعوب الأخرى . فصور لها الوهم ان هذه الشعوب اذا اتحدت ضد الترك لا بد وان تجلب عليه الويلات في المستقبل فقررت ان تتغذى بهم قبل ان يتعشوا بها وذلك ان تستفرغ جهدها بتتريك الشعوب المشتركة مع الترك بالحكم . وتبدأ اولا بتتريك العرب ، لانهم اسلس قياداً من غيرهم لارتباطهم معهم بالرابطة الدينية .

وقد كانت زعماء الجمعية في باديء الامر ، غير مستقرة على اساس واحد . بل منهم من يرى الواجب فى حفظ الكيان القومي ، هو بتتريك الشعوب المنضوية تحت العلم العثماني . والقسم الآخر يرى الانفكاك عنها امراً ضرورياً ، لان اصطباغها بالجنسية التركية ليس بالامر السهل ، وفي بقائها ضرر على الشعب

التركى القليل العدد ، خوفا من ان يذوب في الشعوب التي تحن دائماً الى ماضيها المجيد. غير ان اصحاب هذا الرأي جرفهم فيما بعد تيار اصحـــاب الفكرة القائلة بتتريك الشعوب ، فاندمجوا فيهم واصبحوا كتلة واحدة. وهناك طائفة اخرى كانت ترتأى ان حفظ الدعامة الامبراطورية تتوقف على التفـاف هذه الشعـوب حول الجنسية العثمانية واتحادها على اعـلاء كلمتها. وان الضرب على اوتار العصبية القومية يحرك اشجان النفـوس فى الشعوب الاخرى ، فتنهار حينذاك صروح الامبراطورية العثمانية.

فهجم على اصحاب هذه الفكرة القائلون بالتتريك ، واوسعوهم سبا وشتما على صفحات الجرائد. ومما كتبه أقشوره اوغلي يوسف بك فى مجلة تورك يوردي الشهيرة ما خلاصته :



يوسف اقشوره بك

يجب ان نعمد الى الحقائق فنقررها . ما هي العثمانية ؟ ولماذا لا نقول : التركية . اليست العثمانيـة نسبة الى عثمان التركى ؟ ان الحقيقة تغلب الخيال . ومن المحال العقلي ان تظل هذه الشعوب المتباينة مرتبطا بعضها ببعض وراء ستار وهمي ، وتحت اسم بال خلق .

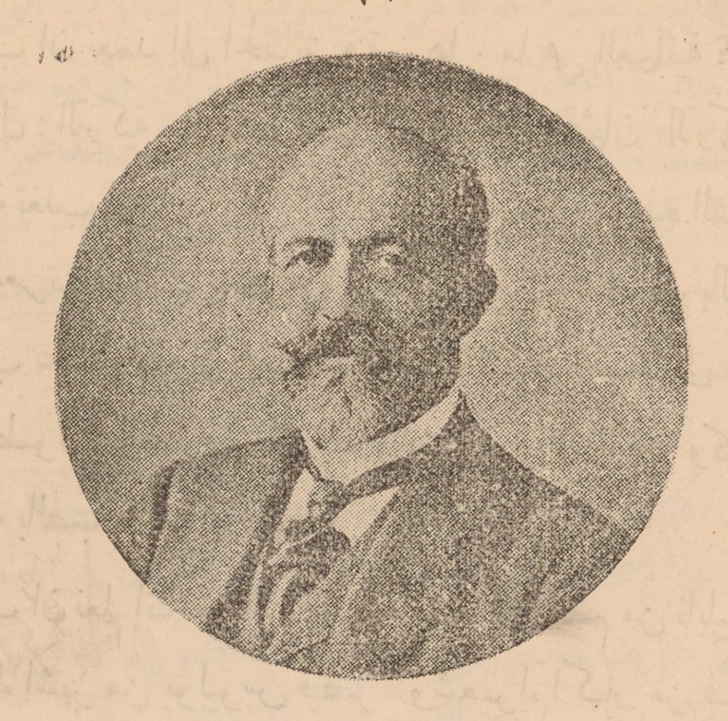
يجب علينا ما دام فى استطاعتنا الحيـاة ، ان نعمـد الى الجيش والاسطـول والعـلوم والاداب والشرائع والقوانين وكل شئ فنصبغه بالصبغة التركية المحضة .

يجب ان نعلم اننا من امة ظهر فيهـا قواد اعظم من نابليـون . وعظماء اشهر من يوليوس قيصر وشعـراء اكـبر من فكتـور هيجو . وان في استطاعتنا ان نفعل ما يفعله الجردن والسكسونيون لحياة قومهم . فلا ينبغي ان نظل مقيـدين بالاوهـام والخرافات الماضية .

وشرع احمد جودت بك يكتب فى جريدته « اقدام » الشهيرة المقالات الضافية بوجوب تنقيح اللغة التركية من الكلمات العربية تحت عنوان

اذا لم تكن لغتنا مستقلة ، فليس بامكاننا ان نستقل سياسياً .

فانبرى له ابو الضيا توفيق بك يناوئه ويفند مزاعمه فى جريدته « تصوير افكار » يساعده سليمان نظيف بك وعلي كمال بك وقد قام بينهما النزاع على قدم وساق . وكل فريق يدلى برأيه ويدعمه بالادلة والبراهين .



ابو الضيا توفيق بك

دعاة القومية التركية

ثم شرع غلاة الوطنية يبثون روح العصبية القومية بين طبقات الشعب ، ويحثون الشبيبة التركية على التمسك باهداب الجنسية وكان في مقدمة هؤلاء احمد جودت بك صاحب جريدة « اقدام » وحمد الله صبحي بك وجلال ساهر بك ومحمد امين بك وضيا كوك الب بك واحمد اغايف بك «١» واقشوره اوغلي

«١» كلمة «يف» في اللغة الروسية معناها «ابن» لذلك لما اعلنت الحرب الكونية سخط اغايف على الروس وعلى كلمتهم فترجمها الى التركية واصبح يدعى اغا اوغلي احمد وهو اليوم نائب عن ولاية قارص في مجلس النواب التركي

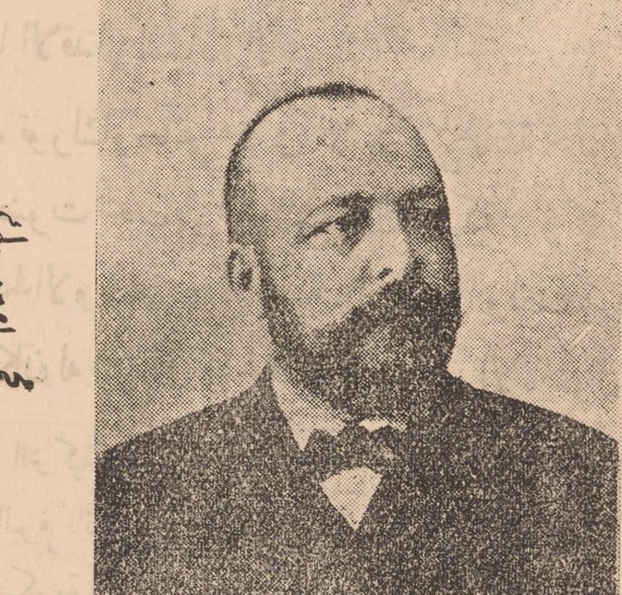
يوسف بك «١» وهؤلاء الاثنان هما من تركستان الروسية وكان لهما القدح المعلى فى بث الشعور القومى وتكوين الوحدة التركية .



اغا اوغلى احمد بك



جلال ـاهر بك



محمد امين بك

«١» هو اليوم نائب عن ولاية الاستانة في مجلس النواب التركي .

وكان الذين يضرمون نار القومية فى الاوساط التركية اكثرهم من « الدونمه » الذين اصلهم من يهود الاندلس ، جاؤا الى تركيا واستوطنوا اسلانيك عندما استولت اسبانيا على الاندلس فخرجوا مع العرب . وقد اسلموا منذار بعمائة سنة ، ولكن الاتراك كانوا الى قبيل الانقلاب العثماني ينظرون الى اسلامهم بعين الريبة ، ولذلك كانوا لا يطلقون عليهم كلمة مسلمين، بل يدعونهم « دونمه لر » أي مهتدين . وقد احرز هؤلاء بذكائهم وحصافتهم المكانة السامية فى المجتمع التركى ، وكان قسم منهم له الرأي المطاع في الجمعية الاتحادية مثل جاويد بك الذي كان وزيراً للمالية وغيره .

واخذت صناديد الاتحاد تبذل الجهد الكبير في نشر الدعوة للجامعة التركية ، وتسعى السعي المتواصل بأفهام الترك انهم اعظم امة اختارتها الاقدار لسيادة الامم .

فتأسس « تورك اوجاغي »[1] في الاستانة برئاسة حمدالله صبحي بك [2] ، فانضوت تحت رايته الشبيبة التركية ، وكان الرئيس الفخرى لهذا الاوجاق جمال باشا السفاح . ولم يمض قليل من الزمن الا وكان له فرع فى كل مدينة من مدن الاناضول .

«١» العائلة التركية .

«٢» هو اليوم نائب عن ولاية الاستانة فى مجلس النواب وقد كان وزيراً للمعارف في الحكومة الجمهورية التركية .





حمد الله صبحي بك

ثم تأسست الاندية الكثيرة تحت اسماء مختلفة ولكن الغاية واحدة مثل «تورك درنكى «١» و «تورك يوردي «٢» و «تورك بلكيشي «٣» و «تورك كوجى «٤»

وقد بلغ حب العصبية القومية بشبان الاتراك الى درجة الهوس والطيش. حتى انهم الفوا دعاءً جديداً كان يتلوه كل واحد منهم في غدوه ورواحه، وهذا ترجمته:

أيها الأله القادر على كل شئ!

أنعم على الترك بالصحة والعافية، وأحسن اليهم بذئب أبيض «٥» واشملهم برعاية مولانا السلطان الاعظم وانت يا مملكة توران الجميلة المحبوبة، ارشدينا الى الطريق المؤدية اليك، لأن جدنا

«١» ثبات الترك «٢» المملكة التركية «٣» العلم التركى «٤» القوة التركية «٥» الذئب الابيض آله من آلهة الترك الاقدمين. وقد كان شعارا لهم.

« اوغوز » الـكبير ينادينا .

ايها الآله القادر على كل شىء !

انر طريق توران امامنا ، واجعل أمتنا كالورد الناضر ، واهدنا الصراط المستقيم .

انفراج مسافة الخلف بين الترك والعرب

رأى صناديد الاتحاد ان العقبة الوحيدة الحائلة فى طريقهم دون بلوغ المقصد هي حاجة الشعب التركى الى اللغة العربية من اجل الدين . ورأوا ان هذا ولغته مما يعيق تكوين امة تركية . ودولة تركية فاجتهدوا في نشر الـكتب والرسائل التي تجعل الجنسية التركية اعلى واسمى فى النفوس من رابطة الدين تمهيداً لنسخ الثانية بالأولى .



وقد نشر عبيد الله افندي «١» كتاباً أسماه « قوم جديد » كان

« ١ » هو غير عبيدالله افندي الذي كان نائبا عن ازمير في مجلس النواب العثمانى وصاحب جريدة «العرب» الشهيرة . واما هذا فهو رجل من احدى قرى الروملى .

أفصح معبر عن رأي غلاة الوطنية ، ومما جاء فيه :

الانكار الشديد على وضع اسماء الخلفاء الراشدين وسبطي الرسول في الواح معلقة على قباب المساجد التركية مع ان اولئك الرجال من العرب . فالكتاب ينكر عليهم ذلك ، ويقول للترك :

أليس عندكم من الخلفاء والرجال العظام من الترك من هم خير من أؤلئك العرب . انزعوا هذه الاسماء وضعوا مكانهـــا اسماء عظام الترك .

وقد جاء فى الصحيفة ٨٩ من الكتاب ما نصه :

ما هذا الجهل ؟ وما هذه الغفلة التي استولت عليكم ايها الناس ؟ تعلقون اسماء خلفاء العرب على جـــدران جوامعكم ، وتتركون اسماء خلفاء الترك الذين قدستهم الاحاديث النبوية . ولا تكتفون بذلك بل ينزل الخطيب قدمة واحدة عندما يذكر اسماء الخلفاء الترك تنزيلا لمقامهم وتذليلا ، ثم تزيدون ركعتين يوم الجمعة باسم « آخر ظهر » فكل هذا مبتدع ومحدث للحط بشأنكم سياسة .

انكم ايهـــا الاتراك قوم مقدسون ومبجلون . ومع ذلك تقدسون الشيخ عبد القادر الكيلاني والشيخ البدوي والشيخ الفلاني . وتدعون ان الله وملائكته حتى الموكلين منهم بعذاب القبر منكر ونكير يتكلمون باللغة العربية وتقولون دائماً اوله شام وآخره شام وتسعون دائماً لاغفال ابناء الترك بأنه سيخرج من العرب مهدى آخر الزمان .

والحاصل تشتغلون منذ سبعمائة سنة بمثل هذه الخرافات ، فتغشون العالم وتحتقرون ابناء امتكم النجباء الذين مافتئوا يجاهدون في سبيل الله للدفاع عن الاسلام ، ويدفعون عنه تعرض الكفار الفجار له . فكل ما ذكرته موضوع بصورة خصوصية ومقصود بالذات لتحقيركم والحط من منزلتكم .

اما سمعتم الآية « والعاديات ضبحاً » فان الله قدس بهذه الآية الجيوش التركية . فخيل هذه الجيوش هي اشرف واقدس اضعافا مضاعفة من شرافة وقداسة رؤساء واشراف الشعوب الاخرى الذين تقدسونهم وتحترمونهم .

وفي احد الايام طلعت علينا جريدة اقدام وفيها مقالة عن اليمن بامضاء خليل حامد ، طعن بها العرب في الصميم . ومما جاء في هذه المقالة :

ان العرب بمقتضى طبيعتهم يبيعون بالمـــال كل شيء حتى اعراضهم ! ! . . .

فقامت قيامة الشبيبة العربية في الاستانة . ودفعتهم قراءة هـــذه العبارة الى ادارة الجريدة ، فرموها بالاحجار وكسروا زجاج الشبابيك ، واهانوا احمد جودت بك على نشره هذه المقالة البذيئة . ثم ذهب وفد منهم الى رئيس الوزارة وكان يومئذ حقي باشا فاخذ يلطف من حدتهم ، ووعدهم باحالة احمد جودت بك على ديوان الحرب العرفي لتعطيل جريدته ، ثم محاكمته في المحاكم

العدلية . وقد حكم الديوان العرفي بتعطيل الجريدة الى اجل غير مسمى . ولكن صاحبها لم يلبث ان اصدرها وكتب فوق كلمة اقدام كلمة « يكي » اي الجديدة . فحكم عليه ايضا الديوان العرفى بماية ليرة عثمانية غرامة غرمها .

فكتب احمد جودت ثاني يوم مقالة نشرها فى جريدة «طنين» لصاحبها حسين جاهد بك وهو العدو الالد للعرب ، وجريدته اكثر انتشاراً من غيرها اعتذر فيها عن نفسه ولكن كان عذراً اقبح من ذنب . فانه نفث فيها سموم التغاير والتدابر بين العرب والترك بايهامه القارئين لها حيث كتب :

حسين جاهد بك

ان العرب يتهمونه بانه مندفع لعداوة العرب بجنسيته التركية ويرون ان الترك اعداء العرب . وانتقل من هذه الدسيسة الى الامتنان على العرب بفضل الترك عليهم . وقد ادعى في مقالته ؛ ان جريدته ليست عنصرية ، ولا ترجح الترك على غيرهم من العثمانيين ، وان جميع القراء يعترفون له بذلك .

ثم قال بعد مقدمة طويلة مدح بها نفسه وبرأها كما شاء له الهوى:

فالقول بان التركية هي التي دفعت جريدة اقدام لكتابة تلك الفقرة هو اتهام للترك كلهم . ثم قال :

نعم ان الترك ضحوا في اليمن وغيرها مئات الالوف من اولادهم ، فهذه التضحيات ليست لاجل ان يفترقوا عن العرب ، بل بالعكس يقتضى محبة الاتحاد معهم ! والتاريخ يشهد لنا بان الذى خلص جزيرة العرب من استعمار الاجانب لها فى ايام الصليبيين انما هو دماء الترك وذلك خدمة للاسلام . والعرب لاتنسى ذلك الى يوم القيمة ! .

ونقدر ان نقول بعبارة عامة ان الترك بذلوا ارواحهم فى سبيل العرب !!

بناء على ذلك كيف يكون الترك خصماء للعرب وسالكين سبيل الحاكمية العنصرية ؟ فهل هذه التهم هي مكافئة على الدماء التى اراقها الترك في سبيل العرب ! . وهل بعد هذا يكون القول بان صاحب اقدام عدو للعرب ، موافقا للمنطق ؟ ! . .

وقد كان لمقاله هذا ، دوي عظيم في نفوس الشبيبة التركية ، واصبح الشاب التركي ينظر الى الشاب العربي بعين البغض والحذر وهذا ما كان يريده احمد جودت بك . . .



احمد جودت بك

وعندما طير البرق خبر المقالة المتضمنة للطعن في اعراض العرب ، الى المدن العربية الكبرى ، قامت قيامة الجرائد وخاضوا فيها ، وكان لها من سوء التأثير فوق ما يتصوره الانسان . ومما كتبته احدى الصحف العربية المعتدلة في سورية :

« في عاصمة السلطنة العثمانية جريدة تركية تدعى اقدام ، ما زالت تنفث سم الشقاق بين العرب والترك ، وتعزي الى العرب انواع الرذائل . ولم تنبش بالحقيقة الا دفينة الفضائل :

واذا اراد الله نشر فضيلة طويت اتاح لها لسان حسود

وقد بلغت القحة ببعض من يكتب بها ويسود صفحاتها وهو المسمى خليل حامد ، انه نسب الى العرب تلك النسبة الشنعاء ، وهو انهم يبيعون اعراضهم بالمال .

خسئت لااب لك . وما اصدق المثل العربي عليك « رمتني بدائها وانسلت » راجع تاريخ العرب واحوالهم من قديم وحديث تجد انهم يبذلون ارواحهم واموالهم في سبيل صيانة اعراضهم . وهذه انساب العرب يتوارثونها كابراً عن كابر فاين نسبك ونسب من ينتمي اليك يا صاحب اقدام ؟ » .

وكتبت جريدة الرقيب التي كانت تصدر في بغداد مانصه :

« ان الكاتب لابد وانه يجهل العرب واحوالهم كل الجهل ، ويرى ان ناموسه لديه اقل شيء يمكنه بيعه بابخس ثمن ، ويرى نفسه عند نفسه جليلا موقراً قاس غيره عليه . ولكن الحكومة علمته قدره جزاها الله خيراً » .

ثم انبرى شعراء العرب يهجون الاتحاديين ويندون باعمالهم ومن ذلك ما قاله يوسف افندي حيدر البعلبكي :

عداك سهادي دأب عيني ان تكرى
وكيف يذوق النوم ذو مقلة عبرى
تعوّد ان يحيي دجى الليل ساهراً
يصعد انفاساً من المهجة الحرى
ينوح على عهد مضى ومعاهد
دعتها يد الاقدار خالية قفرى
منازل كانت مهبط العلم والحجى
بها غرة الاعراب قد اصبحت غرا

مرابض آســاد الشرى من بباسهم
قلوب ملوك الارض قد ملئت ذعرا

ســلالة اصلاب العلى آل يعرب
اولو الهمــة الشماء والراية الحمرا

همو قصروا ايدي القياصر عنوة
وهم هاجموا كسرى بايوانه قسرا

لقد ضربوا اطنــاب ابياتهم على
سما قبة الجوزا وفي هامــة الشعرى

فقــل لجهول راح يلثم عرضهم
ولم يدر ان الويل من جهلهم طرا

فهل امــة الاتراك اضحت غيورة
عليهم وكل الارض من فعلهم غبرا

ولم يبعث الرحمن فيكم محمـــداً
وفى لغة الاتراك لم تنزل الذكرى

خلافتـــكم كانت بقايا فخارهم
ونلتم هدى الايمان في فضلهم طرا

فلا حرب ذي قار صلتها سيوفكم
ولا صنتم عن فارس عرضكم قهرا

* * *

فدع عنك يا هـذا مباراة معشر
إذا ذكروا فالكون يذكو بهم بشرا
هم القوم ما كانوا مماليك غيرهم
ولا اتخذوا اعراضهم للملا تجرا
هم اهل بيض قد حموها ببيضهم
وقد نصبوا سمر القنا دونها خدرا
فلم ينكحوا ليلى العفيفة اعجما
ولا زوج النعمان من بنته كسرى
بنفسي ليوثا من بني المجد يعرب
فوارسها اضحت على فارس تترى
مناقب في صدر التواريخ اثبتت
متى نشرت فاحت بذكرهم نشرا
لقد اقسموا ان لايقروا على اذى
وقد خاب يوماً من على الذل قد قرا

* * *

اليك إلهي نشتكي طيش معشر
وان كنت منهم في نفوسهم ادرى
يريدون منا ان ندوم بجهانا
وتضحى من الاموال راحاتنا صفرا

يريدون منا ان تموت نفوسنا

ونرحب في افعــال طيشهم صدرا

يريدون منا ان تطيش حلومنـــا

وان نخفض الاصوات في مجلس الشورى

حنــانيك يار باه فى امر عصبـــة

اتت بالذي تبغيــه من امرنا امرا

لقـــد اظهروا فى قولهم وفعــالهم

مرامهم المكنون في سرهم جهرا

اليكم بني الاعراب ارفع قصتي

لأبلغ فيهـا من لدن قومنـا عذرا

لعـــلي ارى من عزمكم ما يسرني

ومن جدكم ما تعظمون به قدرا

عليكم ســـلام الله ما دام عرضكم

مصاناً لديكم لا يبـــاع ولا يشرى

وقد انفرجت مسافة الخلف بين الترك والعرب بعد وقوع هذه الحادثة ، وبلغت الدعاية العربية ضد الاتراك منتهاها .

تم الجزء الاول ويليه الجزء الثانى

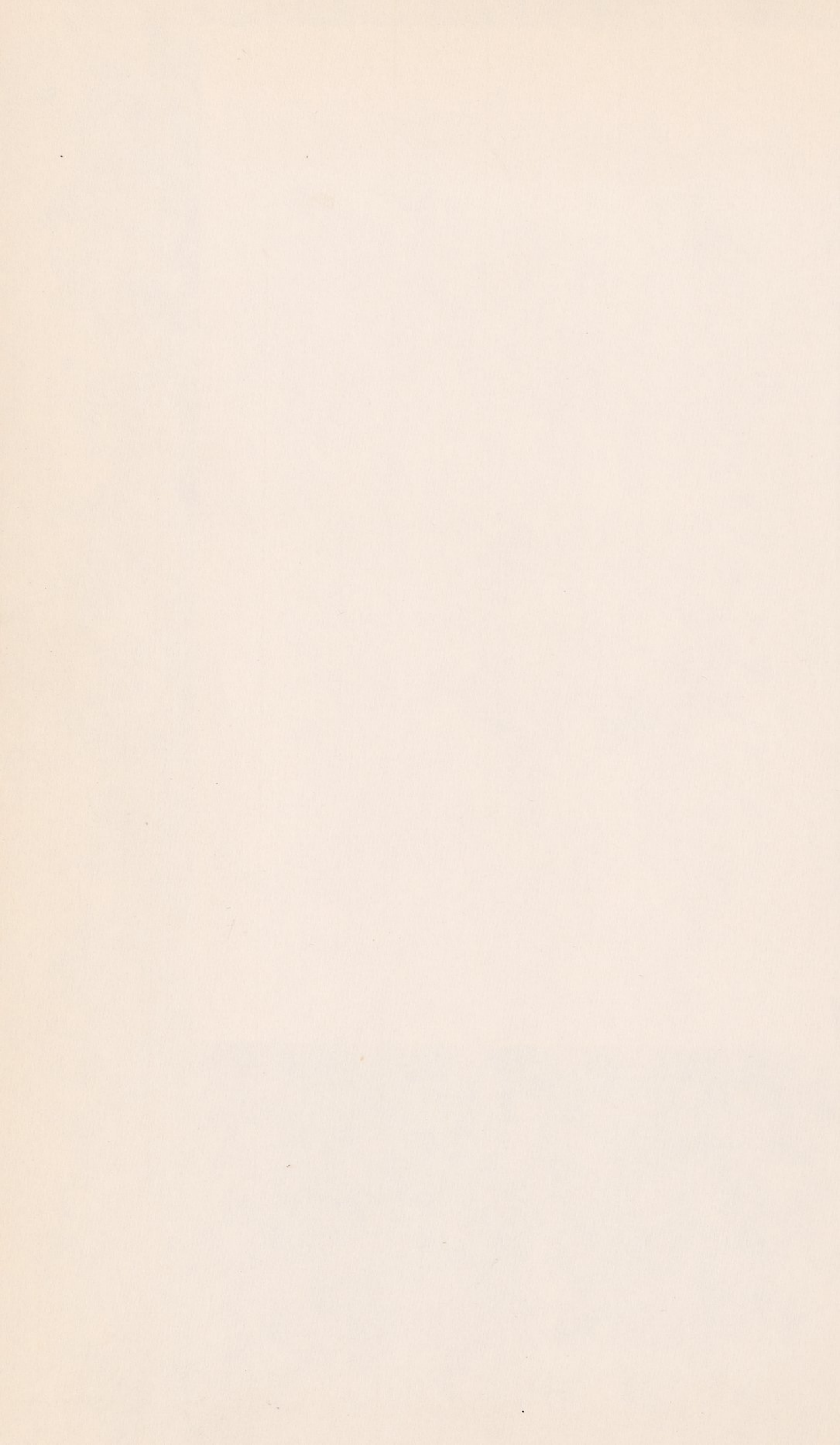


فهرس الموضوعات للجزء الاول

فهرس الصور

تنبيه : ان كلمة « الفصل الثالث » في الصفحة ٢٠ هي زائدة وقد جائت خطئاً





DATE DUE

